النبى الشهيد

يحيى عليه السلام

(يوحنا المعمدان)



تأليف

فتحى فوزى عبد المعطى

النبى الشهيد

يحيى عليه السلام

[يوحنا المعمدان]

تأليف
فتحى فوزى عبد المعطى

بسم الله الرحمن الرحيم

• ﴿يا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ وآتيناه الحُكْمَ صَبِيًّا ۞ وحنانًا مِن لَدُنّا وَزَكَاةً وكَانَ تَقِيًّا ۞ وبَرًّا بِوالِدَيْهِ ولَمْ يَكُنْ جبَّاراً عَصِيًّا ۞ وسلامٌ عَلَيْهِ يَومَ وُلِدَ ويَومَ يَمُوت ويوم يُبْعَثُ حيًّا﴾

قرآن كريم – سورة مريم الآيات (١٢–١٥)

• (من هوان الدنيا على الله أن يحيى بن زكريا قتلته امرأة)

حديث شريف

• (ما من أحد من وَلَدِ آدم إلا وقد أخطأ أو همَّ بخطيئة .. ليس يحيى بن زكريا)

حديث شريف

• (الحسن والحسين سيدا شباب الجنة إلا ابنى الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام)

حديث شريف

• (لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان)

إنجيل متى – الإصحاح ١١



مقدمة

يتفق المسلمون والمسيحيون جميعاً على نُبُوَّة يحيى (يوحنا) عليه السلام، وهذا الكتاب يحكي قصة حياته منذ معجزة ولادته من والدين شيخين .. حتى نهاية حياته على أيدى امرأتين .. شهيداً لكلمة الحق والحقيقة.

وقد راعيت فى سرد أحداث هذه القصة:

(١) إعطاء القارئ صورة للحياة السياسية والدينية التى كانت تسود فلسطين فى هذه الفترة، باعتبارها مسرحاً لأحداث القصة.

(٢) الربط بين قصة يحيى فى كثير من فصولها وأحداثها بقصة المسيح عيسى عليهما السلام .. منذ التقيا، وكل منهما جنيناً فى بطن أمه .. حتى كان لقاؤهما عند نهر الأردن، وما تبع ذلك من أحداث.

(٣) الاهتمام بالشخصيات الأساسية والمحورية للقصة بالإضافة إلى بعض الشخصيات الهامشية التى كان لابد منها لتكامل وحدة البناء للقصة، وترابط أحداثها.

(٤) الاستشهاد فى كثير من أحداث القصة بما جاء فى القرآن الكريم، وما ورد فى الأناجيل.

(٦) فى نهاية الكتاب .. يجد القارىء خريطة توضح الأماكن التى ورد ذكرها فى القصة.

والله ولى التوفيق

المؤلف

فتحى فوزى عبد المعطى

(١)

أشرق الكون بنور من الله ذات صباح، فكسا بيت المقدس وما حوله رداء فضياً جميلاً، واستيقظ الناس من نومهم .. يطالعون في الشمس سنا ضوئها، وينظرون في مُقلة الصبح وجمال الكون صورة لقدرة الله وبديع صنعه.

ودبّت الحياة في القرى والمدن المحيطة بأورشليم وجبل الزيتون،بيت لحم وأريحا وحبرون وعين كارم وبيت صور وبيت آيل، وزخرت الطرق بالناس الذين مضوا في طريقهم .. كل فيما شاءه الرب له من شؤون الحياة.

واستيقظ فيمن استيقظ من أهل قرية عين كارم[١] زكريا[٢] بن برخيا وزوجته أليصابات[٣].

كان زكريا أحد أنبياء بني إسرائيل من فرقة أبيًا .. يصل نسبه إلى سليمان وداود عليهما السلام .. عُرف بين قومه بالتقوى والصلاح .. يعلّم الناس توراة موسى ومزامير داود .. يهديهم إلى تعاليم ربهم في عصر ضاعت فيه الحقيقة، وانتشرت الماديات، وفسدت الأخلاق، وغرق القوم في أوهام الضلالة .. أما أليصابات فكانت سيدة بارة تقية .. ينتهي نسبها إلى هارون عليه السلام.

---

(١) عين كارم: إحدى القرى الواقعة على السفوح الغربية للقدس تبعد عنها بحوالي ٨ كم – نشأت حول عين ماء – هي الآن مستوطنة يهودية منذ عام ١٩٥٣ تعرف باسم (عين كريم).
(٢) معنى زكريا: من يذكر الله .. وهو يعرف بنبي الرجاء.
(٣) أليصابات: معناها قسم الله.

كان الزوجان سعيدين بحياتهما .. حَسْبُهما أن ينعما بمحبة الناس لهما .. لولا ما كان يقلق خاطرهما، فقد مضت بهما السنون، و لم يعقبا ذرية! .. كم تمن نفساهما إلى ابن يملأ عليهما حياتهما. تقرُّ به عيونهما .. كم تمنّى أليصابات أن تسعد بوليد ينعم بظلال أمومتها، ولتهبه من عطفها وحنانها بقدر ما أودع الله فى قلبها من عطف وحنان، وكم يتمنى زكريا أن يرزقه الله بابن يرث مكانة أبيه وأجداده بين قومه، ويحمل راية العلم من بعده؛ ومن أجل هذا كثيراً ما كان يدعو ربه:

- ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾(١)

وطال بالزوجين الحنين .. دون أن يحقق الرب لهما الأمل الذى ينشدانه، وشاخ زكريا، وأصابه الكبر .. ضوى جسمه ووهن عظمه، وغمره المشيب، وانحنى ظهره .. حتى لتكاد شيخوخته تعجزه عن أداء عمله كنجار، وتمنعه من أن يستمر في دعاته وصلاته وموعظة قومه .. ومع ذلك بقى متعلقاً بالأمل .. ما خامره يأس فى تحقيق أمله.

وكانت أليصابات هى الأخرى دائمة الدعاء لربها .. فكم يحزنها أن ينظر الناس إليها كامرأة عاقر!!، ويعلم الله أنها تقيَّة .. لم تفعل ما يُغضب الرب .. كم تتلهف نفسها إلى أن تطفئ ظمأ أمومتها التى طالت.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية (٨٩).

لقد سعد الزوجان بضع سنوات برعاية قريبتهما مريم ابنة عمران .. بعد أن فقدت أباها، وكانت أمها قد نذرتها لخدمة بيت الرب .. يومها اختلف القوم فيمن يكفلها، واقترعوا بأقلامهم، فكانت مريم في كفالة زكريا، وكانت أليصابات أكثر سعادة بمريم ابنة حنة بنت خالتها، وغدت مريم في حياتهما كالدوحة الخضراء .. حتى إذا بلغت مبلغ النساء في قومها .. كان عليها أن تغادر بيت الرب لتكون زوجة لواحد من قومها، فاختار الرب لها يوسف النجار خطيباً، فذهبا إلى الناصرة حتى يحين الحين، ليتزوجا وفقاً لشريعة موسى .. وبقي زكريا وأليصابات وحيدين بعد أن تركتهما مريم .. يسامران ذكرياتهما كلما ألم بهما طائف الذكريات الماضية وعاودهما الأمل والرجاء أكثر ما يكون رغبة في الولد، فما يمضى كل صباح حتى يكونا قد هدآ إلى ربهما يدعوانه في صلاتهما .. يهتفان من أعماقهما أن يحقق الرب لهما الأمل .. لعلهما كانا يتطلّعان إلى معجزة مثل تلك التي أفاء الله بها على إبراهيم وزوجه سارة يوم وهبهما اسحق بعد طول انتظار .. إنه استرواح الأمل، وإنعاش الرجاء .. إنها بارقة المنى تلمع أمامهما.

استيقظ زكريا وأليصابات في ذلك اليوم .. حتى إذا فرغا من صلاتهما ودعائهما .. ارتدى زكريا مسوحه البيضاء، وتوكأ على عصاه، وودع زوجته، ليمضي إلى بيت الرب .. لكن طرقات واهنة، ثم عالية تطرق باب دارهما، فما هي إلا لحظات حتى دخلت عليهما جارتهما (راحيل)،

وقد علا وجهها الفرح والبشر، وهي تقول

- كم اتمنّى أن أنظر شجرة التين التي في صحن داركم.

ودهش الزوجان لما تقوله راحيل، وقالت أليصابات في تعجب:

- وما أمر شجرة التين يا عزيزتي؟!

قالت راحيل، وما تزال الفرحة تكبر على وجهها:

- لعلها كما رأيتها اليوم.

- .... ؟!

- كم أسعدتني رؤيتها.

وسكتت راحيل قليلاً .. تقرأ الدهشة على وجه الزوجين، ثم عادت تقول:

- استيقظت صباح اليوم كعادتي قبل مشرق الشمس، ثم عاودني الغمض، فغفت عيناي لحظة لا علم لي بمداها، فرأيت شجرة التين التي في صحن داركم، وقد أينعت أوراقها، وأزهرت .. حتى خُيِّلَ إلى أني تنسَّمت شذى عطر أزهارها!!.

وكبرت الدهشة على وجه الزوجين، لما تقوله راحيل، ونظروا جميعاً إلى شجرة التين القائمة في صحن الدار، فإذا هي كما عرفاها، فقالت أليصابات:

- هذه شجرة التين يا راحيل .. كما هي .. لم تُورِق،

ولم تزهر بعد!!

وقال زكريا:

– مازلنا في فصل الخريف لم يحن موعد اخضرار الأشجار .. عما قريب يأتي الشتاء، ويعقبه الربيع، فتزهر الأشجار، وتعود إلى الأرض حلاها الخضراء.

لكن راحيل قالت في حسرة واضحة:

– كم كان حلماً جميلاً .. أن تزهر وتورق شجرة في غير حينها.

وبقيت راحيل تشارك أليصابات وحدتها وحديثها . بينما مضى زكريا إلى بيت الرب، وما تزال كلمات راحيل وصورة شجرة التين تتراءى أمام عينيه الكليلتين، وتعيد إليه خواطر كثيرة!!.

(٢)

التفّ كثير من الرجال حول زكريا فى مجلسه على مقربة من بيت الرب فى قريته .. كانوا كثيرين .. عزرا وسمعان وشاؤول وغيرهم، وقد علا وجوههم الغضب والسخط، لما يقترفه الرومان وهيرودس من سيئات.

قال أحدهم .. شاؤول، ذلك الفتى الفارع الطول الذى عُرف بكثرة ترحاله وسفره:

– كم يذكّرنى ما يفعله الرومان بأهل فلسطين بما يفعلونه بأهل مصر!!

وقال عزرا:

– كأنهم بذلك يعيدون سيرة بختنصر الكلدانى الذى أسر رجال قومنا، واستحيى الكثير من نسائهم، وساقهم أسرى إلى بابل.

وتبعه سمعان:

– بل إن هيرودس أكثر طغياناً من بختنصر .. أما كفاه ما فعله بأهله .. خنق زوجته مريمنة، وقتل ابنها وأباها وأمها، وذبح صديقيه!!

وقال أحدهم:

– وذبح العجوز هوركانس.

وعاد شاؤول يقول:

– كأني بهذا الحاكم الآدومي قد استمرأ الدماء، فأخذ يشتجر الصراع مع كل من حوله، أو كأنما أصابته لوثة فى عقله .. أفقدته الصواب، فما عاد يعرف الحق!!

وقال زكريا:

– لقد أصبحت رئاسة الكهنوت ألعوبة فى أيدى الحكام الأدوميين والولاة الرومانيين، وأصبح العشاريون مُبْغَضين إلى الشعب .. يعيشون وسط أغوار كثيفة من الظلم .. ظلمات بعضها فوق بعض.

وتتابعت أصوات الرجال حانقة .. ثائرة:

– والجنود .. عاثوا فى البلاد الفساد .. سلباً ونهباً؛ حتى أسكرهم المال والسلطان.

– و لم تعد خيرات فلسطين لأهلها.

وعاد زكريا يقول:

– لقد جعل هيرودس أعيادنا فرصة للفساد، وأدخل فيها الألعاب الوثنية!!

وقال آخر:

– ونهب قبر جدنا داود نبي الرب.

وتتابعت أصوات الرجال:

- وتَقَرُّباً إلى سادته .. وضع تمثالاً من الذهب للنسر الروماني على مدخل هيكل الرب في أورشليم!!

- وأنفق كثيراً من أموالنا على بناء قصوره وحصونه وقلاعه.

- وسحق ماكيرا الذي يزجُّ فيه بالأبرياء من معارضيه.

- فقاسى الشعب الفقر والحاجة، وفلسطين بخيرها ما ضنَّت السماء بمائها، ولا شحَّت الأرض بخيراتها.

وعاد عزرا يقول:

- وأفسد كثيراً من رجال الدين مثل قيافا وحنانيا، فأصبحوا يغضُّون الطرف عن جرائم القادة الرومان.

- لقد طفح بنا الكيل.

- وفشا الفساد في أنحاء البلاد .. فساد النفوس والذمم.

كان زكريا يستمع إلى الرجال في ثورتهم، ويعلم صدق ما يقولونه، وما يملك إلا أن يهدِّئ خاطرهم، فقال.

- لقد مضى على قومنا أكثر من أربعمائة عام دون رسول يعيدهم إلى ربهم، فهل يحقق لنا الرب عهده؟! عما قريب سيأتي من يحقّ له الجلوس على عرش أبيه داود.

فقال الجميع:

- آمين.

ومضى الرجال في طريقهم .. كل إلى حيث يشاء ..

بينما توكأ زكريا على عصاه متجهاً إلى داره . وحانت منه التفاتة إلى هيكل الرب ومحرابه، فتذكر مريم ابنة عمران، وعادت إلى ذهنه ذكريات تلك الأيام التي كان يجدها في محراب الرب خاشعة لـه، وحولها من الخيرات رزق كثير، فيقول لها:

- ﴿يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾(١)

فتقول له:

- ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢)

فما يتمالك زكريا نفسه، وقد اخضلّت عيناه بالدموع . إلا أن يهتف من أعماقه:

﴿ربِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾(٣)

ترى هل يحقق الرب للشيخ دعاءه؟

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٣٧).

(٢) سورة آل عمران، الآية (٣٧).

(٣) سورة آل عمران، الآية (٣٨).

(٣)

أحدث مدينة أورشليم زينتها، وماجت بالحركة والنشاط، وازدحمت شوارعها، وهرع كثير من الناس إلى بيت الرَّب .. علّهم يحتلون مكاناً قريباً من الهيكل، فقد كان اليوم هو عيد اليهود.

كان بيت الرب على ضخامته واتساعه وتعدد ردهاته .. قد امتلأ بالناس .. جلس بعضهم في صحن البيت، وبقي آخرون خارجه، والتف كثير منهم حول أعمدة الهيكل التي يزيد عددها عن المائة والستين عموداً، وعلت أصوات البائعين وطالبي الحاجات .. تخالطها دعوات المصلين وصرخات الأطفال .. أما هؤلاء الذين لم يجدوا لهم مكاناً في بيت الرب، فقد صعدوا الجبال المحيطة به.

كان زكريا قد اعتاد أن يذهب إلى بيت الرب في أورشليم كل عام مرتين . حيث يقضي أسبوعاً، وكثيراً ما كان يصطحب معه زوجته أليصابات من أجل هذا قدم زكريا في هذا اليوم مع زوجته وبعض من أهل قريته، وقد لبس أفخر الثياب، وأشرق وجهه بابتسامة الأمل والرجاء.

كان زكريا أحد كهنة الهيكل الذين لهم الحق في أن يقيموا في أحد الأروقة التي لا يدخلها إلا الكهنة في ثيابهم المقدسة، وكان أهم الخدمات التي يقوم بها خُدَّام الهيكل تقديم البخور على المذبح الذهبي .. بينما كان باقي الجمهور يصلّون

خارجه.

ولأن خدمة الهيكل تُعيَّن بالقرعة، ولم يسمح لأحد بها أكثر من مرة واحدة في حياته .. شاء الله في ذلك اليوم أن تكون القرعة لزكريا.

اتجه زكريا إلى مذبح الرب، فلَبِثَ فيه بعضَ الساعة، وهو يستمع إلى تراتيل الصلاة. وقد زاد وجهه بشراً، ثم التفت إلى القوم، وقال لهم.

- أيها الناس: اخشعوا لربكم .. طهِّروا نفوسكم .. نقُّوا قلوبكم من الخطايا .. يستجب لكم.

ثم خطا بضع خطوات، فأخذ يُمسـاه تلك المبخرة التي أعطاها له أحد خدَّام الهيكل، وراح يصعد درجات السلم . ورائحة البخور تنبعث ذكيَّة عطرة .. يحملها الهواء إلى كل مكان داخل الهيكل وخارجه حتى إذا بلغ الدرجة الأخيرة .. اختفى داخل الهيكل حيث المكان المقدس، فأدرك أنه أقرب ما يكون إلى ربه، فراح يردِّد من التراتيل والأدعية ما حفظه عن آبائه وأجداده، فبينما هو كذلك أبصر ملاك الرب واقفاً عن يمينه . ضاماً جناحيه، فأصابته رعْدة في جسده . حتى كادت المبخرة أن تسقط من يُمناه، فلم يستطع أن يمسك كلمات يهتف بها لسانه:

- ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۞ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَاءِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي

وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾(١)

ولدهشته جاءه صوت ملاك الرب يقول له على لسان ربه:

- ﴿يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾(٢)

خُيِّل إلى زكريا أن ما يسمعه هو صدى لآماله .. لكن ملاك الرب عاد يقول له:

- ﴿أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾(٣).

وكبرت الدهشة على وجه زكريا .. أيمكن أن يكون له ولد؟! أيتحقق أمله بعد أن أصابه الكبر؟! .. يالها من أمنية طالت بها السنون، ولم يستطع زكريا، وهو في دهشته أن يمسك لسانه وهو يقول:

- ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾(٤)

وجاءه صوت ملاك الرب يقول له:

---

(١) سورة مريم، الآيات (٤-٦).

(٢) سورة مريم، الآية (٧).

(٣) سورة آل عمران، الآية (٣٩).

(٤) سورة مريم، الآية (٨).

﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾[1]

.... !!؟

وسمع من يقول:

– (وسيكون عظيماً أمام الرب، وخمرا ومسكرا لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلئ بالروح القدس)[2].

قال زكريا:

– ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾[3]

قال ملاك الرب:

– ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[4]

وقبل أن يفيق زكريا من دهشته .. قال له ملاك الرب:

– ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾[5]

فجأة .. اختفي ملاك الرب، وبقي زكريا يفكّر في

---

(١) سورة مريم، الآية (٩)

(٢) إنجيل لوقا - الأصحاح الأول: (١٥، ١٦)

(٣) سورة مريم، الآية (١٠).

(٤) سورة مريم، الآية (١٠).

(٥) سورة آل عمران، الآية (٤١)

أمره!! ماذا يقول الناس عنه؟ لابد أنهم سيتقوّلون عليه وعلى زوجته، ولكنه تذكر أنها مشيئة الرب.

كان القوم ما يزالون ينتظرون خروج زكريا من الهيكل، فلما طال بهم الانتظار .. غلبتهم الظنون .. قال أحدهم.

– لعل الرجل قد أعْجزته شيخوخته عن الخروج؛ فسقط مريضاً في هيكل الرب!!

وقال آخرون:

– فما أعظمها من نهاية .. أن يلقى الإنسان ربه في رحاب هيكله المقدس.

وقال قوم غير هؤلاء وهؤلاء:

– فليصعد أحدنا إلى هيكل الرب، فلينظر أمر هذا الرجل، فلعله قد استعذب القرب من الرب، فيدعوه من أجل قومه.

وشعرت أليصابات بما بدا على وجوه الناس، وخشيت أن يكون مكروهاً أصاب زوجها، وتداعت في رأسها كثير من الخواطر .. لكنها سمعت صيحة من يقول.

– هذا هو زكريا .. قد أقبل عليكم.

ونظر الجمع .. فإذا وجه زكريا قد اكتسى بالكثير من مظاهر الحزن والخوف والمرح . كان وجهه شاحباً، وكانت خطواته وئيدة ثقيلة، وهو يهبط درجات السلم.

كان الناس قد اعتادوا أن يستمعوا إلى كلمات الكاهن وهو عائد من هيكل الرب يتلو عليهم نصائحه .. بعظهم .. لكن زكريا لا يستطيع أن ينطق لسانه بهذه الكلمات كأنما سحب على نفسه عباءة الصمت!! .. قال أحدهم:

– ما أمر هـذا الرجل؟ .. كأنما أصابه البكم، فأصبح لسانه عاجزاً عن الكلام!!

كانت شفتا زكريا تتحركان دون أن ينطق لسانه، والناس من حوله يحاولون أن يستنطقوه، فما يملك إلا أن يشير إليهم .. أن يستمروا في صلاتهم ودعائهم وتراتيلهم.

وغادر زكريا بيت الرب .. تصحبه زوجته عائدين إلى ديارهما .. حتى إذا انتهت الأيام الثلاثة .. فُكّت عُقدة لسانه، وكان أول ما قاله لزوجته:

– أبشري يا أليصابات .. لقد استجاب الرب لدعائنا، وستلدين ابناً .. هكذا شاء الرب لنا!!.

قالت أليصابات وقد غمرتها السعادة والدهشة؛ وانتعش الأمل بداخلها:

– فلتكن مشيئة الله فوق كل مشيئة.

فما مضت الأيام .. حتى أحسّت أليصابات بأعراض الحمل، فاستبشرت خيراً، وحمدت للرب نعمه وفضله، وهي تقول: ·

– ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

(٤)

كانت تباشير الصبح تنبئ بضحى يوم جميل .. حين استيقظت أليصابات من نومها .. تطالع في الكون وجه الربيع الذى كسا الأرض حُلَّله الخضراء، وكانت أليصابات تسعد حين تنظر إلى شجرة التّين في صحن دارها، فتجدها قد أينعت فروعها، وأورقت وأزهرت، فتتذكر ذلك الحلم الذى رأته جارتها راحيل ذات يوم، ومسحت أليصابات على بطنها .. كأنما تطمئن على جنينها .. كم هى سعيدة بما حباها الله وزوجها من فضل، وعما قريب سيخرج وليدها إلى الحياة.

كان زكريا قد خرج كعادته لشئون حياته ودينه، فبقيت أليصابات تطالع في شجرة التين صوراً عديدة .. فبينما هى كذلك .. سمعت طرقات تدق بابها، ففتحته، فأدهشتها المفاجأة!!

إنها مريم ابنة عمران تُشْرِق بوجهها الملائكى . لولا مسحة من مشاق السفر التى تبدو على وجهها، فأسرعت أليصابات تحتضن مريم في لهفة الأمومة وشوق اللقاء . تقبِّلها.

وإذا كانت مريم قد سعدت بلقاء أليصابات، فقد كانت أليصابات أكثر سعادة بمريم .. لولا ما بدا على وجهها من سؤال يكاد يُقلقها. كم تودُّ أليصابات أن تعرف إجابات لما يدور في ذهنها من تساؤلات حيَّرتها منذ دخلت عليها مريم!!

.. اذا كانت مريم قد رحلت مع خطيبها يوسف النجار إلى الناصرة، فلماذا تحمّلت وحدها مشاق الطريق وبعد الشقة؟. ثم ما ذلك الشيء الذي أحست به أليصابات وهي تحتضن مريم؟!

جلست أليصابات ومريم في صحن الدار .. تستعيدان كثيراً من الذكريات التي أسعدتهما. فما مضى غير قليل حتى قالت أليصابات، ولهجة الشك تختلج بها كلماتها:

– بحق الرب يا مريم .. حدّثيني عن حقيقة أمرك.

قالت مريم في بُنّوة صادقة:

– ذلك ما حملني على المجيء إليك؛ فورب موسى ما وجدت خيراً منك .. أبثه حقيقة نفسي.

– فاصدقيني القول يا مريم؛ وما عهدتك إلا صادقة، أأنت حامل؟!

– قالت مريم في ثقة:

– هو كذلك. ولكن يعلم الرب أنني ما خُنت العهد الذي تعاهدت عليه، ولكنه الأمر الذي لا أملك دفعه .. من أجل ذلك جئتك اليوم .. لعلي أجد عندك ما يريح نفسي، ويعيد الأمان إلى قلبي، فيستريح خاطري .. بعد أن أضناني التفكير، واسهدتني الحيرة، وأعوزتني النصيحة.

قالت أليصابات، وما يزال الخوف يقلق خاطرها بهذا أحسست.

– فكيف عرفت ذلك؟!

– أحسست بمن فى بطنى يرتكض لمن فى بطنك، فذلك تصديق له.

وسكتت أليصابات قليلاً، ثم عادت تقول:

– (مباركة أنت من النساء يا مريم، ومباركة هى ثمرة بطنك[1]).

عند ذلك شعرت مريم بسلسبيل الراحة يتدفق إلى قلبها، وهى تقول:

– قال لى ذلك ملاك الرب.

لم تكن أليصابات تعرف شيئاً عما حدث لمريم .. عن سر حملها، فقالت:

– ملاك الرب؟!. ماذا قال لك؟!

فألقت مريم بنفسها فى أحضان أليصابات، وقد غلبها شيء من بكاء .. وأخذت تحكى لأليصابات ما كان من أمرها مع ملاك الرب الذى قال لها:

– (وهوذا أليصابات نسيبتك هى أيضاً حُبلى فى شيخوختها، وهوذا الشهر السادس لتلك المدعوة عاقراً[2])

(١) إنجيل لوقا الإصحاح الأول (٤٢).

(٢) إنجيل لوقا الإصحاح الأول (٣٦).

وإذا كانت أليصابات قد شعرت الصدق في كلمات مريم .. لكنها قالت:

- وماذا يكون من أمرك مع يوسف؟!

قالت مريم:

- ذلك من يُؤرقني!!

- الرب معك يا مريم، ولن يتخلّى عنك .. مباركة أنت من السماء يا مريم، ومباركة هي ثمرة بطنك

وأقبل زكريا عائداً من الخارج، فسمع كلمات زوجته، وأدهشه ما سمع .. خيِّل إليه أن يوسف ومريم قد خانا العهد الذي تعاهدا عليه وفقاً لشريعة موسى .. لكن أليصابات أسرعت تنبئ زوجها بحديث مريم ومخاوفها

ولأن زكريا كان مؤمناً ببراءة مريم وطّهارتها، فقال لها:

هوني عليك يا مريم، وليمتحنك الرب الأمان .. إن ذلك يذكّرني بنُبوءة أشعيا النبي (الرب يعطيكم علامة .. ها إن العذراء تحبل وتلد ابنا[1])

أعادت كلمات أليصابات وزكريا الطمأنينة إلى قلب مريم، وأبعدت عنها مخاوفها، وهيَّأت لها الطريق لتصارح يوسف بحقيقة ما حدث لها مع ملاك الرب .. ولم تنس مريم خلال إقامتها مع أليصابات وزكريا أن تزور بيت الرب

(١) إنجيل متى الإصحاح الأول (٢٣)

حيث قضت طفولتها وبعضاً من شبابها، وهناك كانت تستعيد صوراً كثيرة وأحداثاً عاشتها في هذا المكان المقدس.

فما مضت الأيام .. حتى وضعت أليصابات وليدها. وبعد أسبوع كان على الأبوين أن يختنا الصبي، ويسمياه وفقاً لشريعة موسى .. قال بعضهم:

- فليكن اسمه زكريا مثل اسم أبيه.

لكن أليصابات أسرعت تقول:

- لا .. بل يوحنا (يحيى)

- ليس في عشيرتك من سمي بهذا الاسم

قالت أليصابات بتأكيد:

- لا .. بل يوحنا.

وعاد الزوجان إلى ديارهما بعد انتهاء مراسيم الختان، وقد مشرت السعادة جناحيها عليهما وعلى كل من حولهما، فأشرقت في نفوس الجميع ابتسامات الرضى، وتفتحت عيونهم على قدرة الله ونعمته بينما كانت مريم في طريقها إلى الناصرة، وليكن الرب معها حين تنبئ يوسف نبأ حملها .. ولتمضي بهما الحياة هناك كما شاءها الرب لهما.

(٥)

أصدر أوغسطس -قيصر روما- أمره بأن يكْتَتِبَ كل من في مسكونته، فكان على يوسف النجار وخطيبته مريم أن يأتيا من الناصرة إلى مدينة بيت لحم، ليكتتبا باسميهما، تنفيذاً لمشيئة قيصر.

كانت مريم في أخريات أيام الحمل، ومع ذلك مضت هي ويوسف يقطعان الطريق طويلة شاقة يتلهفان للوصول إلى ديارهما وأهلهما .. حتى إذا بلغا بيت لحم مع مغرب الشمس. اتخذا مكاناً يهدآن فيه، فحطّا رحالهما في طرف من أطراف المدينة، ومضى يوسف يبحث عن (خان) يأويان إليه.

بقيت مريم تنتظر عودة يوسف، فما مضت اللحظات حتى شعرت بعلامات المخاض، وأنها على وشك أن تضع جنينها، فأبصرت على مقربة منها جذع نخلة قائمة، فخطت إليها بخطوات واهنة، وراحت تحتضنها كلما شعرت بآلام المخاض، وفجأة لمعت في الأفق هالة من النور أضاءت كل ما حولها. حين انفصل عنها وليدها يبتسم لها في إشراق.

ولشدَّ ما كانت دهشة مريم حين عادت تنظر إلى جذع النخلة، فإذا هو قد استحال إلى نخلة باسقة .. تدلَّت ثمارها على غير موعد، وجاءها صوت ملاك الرب يقول لها:

- ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۞ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۞ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾(١)

قامت مريم إلى النخلة، وبهزات خفيفة .. تساقطت عليها حبات البلح .. رُطَبًا شهية حلوة المذاق .. ثم نظرت، فإذا جدول ماء ينساب على مقربة منها. فارتوت منه واستعادت قوتها، ثم قامت إلى وليدها، فغسلته وقمطته، وانتحت به إلى مِزْود بقر كان الرعاة قد هجروه في تلك الليلة، فجعلت لوليدها من أرضه مَهْداً، ومن سقفه غطاء، وقد ملأ النور كل ما حولها، وسمعت أصواتَ الملائكة يهتفون:

- (المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة(٢)).

كم سعدت مريم بما أفاء الله عليها من خير، وما حباها من فضل، وتذكرت ذات يوم حين قال لها ملاك الرب:

- ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾(٣)

عاد يوسف إلى مريم دون أن يجد مكاناً في المدينة ..

---

(١) سورة مريم، الآيتان (٢٤، ٢٥)

(٢) إنجيل لوقا، الإصحاح الثانى.

(٣) سورة آل عمران، الآية (٤٢).

تصحبه القابلة سالومة، فأدهشما ما رأيا من أمر مريم ووليدها، وشعرا بفضل الله عليها.

لكن بعضاً من القلق يَعْبث بخاطر مريم، فماذا تقول لقومها .. حين تعود إليهم في قريتها .. تحمل وليدًا لها .. دليل خطئها قبل أن يكتمل لها الحين مع خطيبها؟ لاشك أنهم سيَتقوَّلون عليها، سيسيئون بها وبيوسف الظنون، فهل يكون الرب بها رحيماً، فيكفيها شر مقالاتهم وسوء ظنونهم.؟ وجاءها صوت ملاك الرب يهتف بها:

- ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾(1)

عند ذلك تذكرت مريم قريبها الكاهن زكريا، يوم بشّره الرب بابنه . يومها أمره أن يصوم عن الكلام في مواجهة قومه. لعل في الصوم عن الكلام ما يبعد عنها خطأ الإجابة.

مضت مريم يصحبها يوسف؛ وأفكار كثيرة تتزاحم في رأسها، كلما مرت بمن تعرفهم وهي في طريقها .. حتى إذا وصلت إلى دور قومها، ورأوها تحمل طفلها . أسرع أحدهم قائلاً في استنكار.

- ﴿... يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾(2)

---

(1) سورة مريم، الآية (26)

(2) سورة مريم، الآية (27)

وقال آخر، وهو ينظر إليها في دهشة:

- ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ...﴾[1]

وقالت واحدة:

- ﴿... وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[2]

لكن مريم لا تملك أن تردَّ على أسئلتهم .. لقد أمرها الرب بالصمت، والتفّتت حولها تنظر .. لعلها تجد من يقف بجانبها. ثم أشارت - دون أن تدرى - إلى وليدها . لكن أحدهم أسرع يقول في استنكار:

- ﴿... كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[3]

ولدهشة الجميع، جاءهم صوت الوليد .. يقول لهم:

- ﴿... إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۞ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[4]

كان زكريا واليصابات قد حضرا طرفاً مما دار بين مريم

---

(١) سورة مريم، الآية (٢٨).

(٢) سورة مريم، الآية (٢٨).

(٣) سورة مريم الآية (٢٩)

(٤) سورة مريم، الآيات (٣٠-٣٣)

وقومها، ولأنهما كانا يعلمان الحقيقة، وأنها مشيئة الرب ..
قال زكريا:

– فليكن لكم فى مريم وابنها إيمان بقدرة الرب ومشيئته، ولتحفظوا لها سرها، وادعوا الله أن يكفيها شر الظالمين.

ولعل عيسى ويحيى فى هذا اليوم قد تلاقت نظراتهما. كأنهما كانا على موعد معاً.

ترى .. هل يقدر لهما أن يلتقيا بعد ذلك؟!

(٦)

لم يبق من الليل إلا لحظات يُوشك بعدها أن يشرق فجر يوم جديد، ومع ذلك لم يستطع هيرودس أن ينام. فقد خاصم الكرى عينيه المسهدتين .. حتى ذبالات شموعه انطفأت، فلفّه الظلام، وهو يذْرع حجرته جيئة وذهاباً، وقد تعاقبت في ذهنه المكدود صور كثيرة عاش أحداثها، صور زوجته وابنها وأصدقائه الذين غدر بهم وقتلهم .. صور أفراد شعبه الذين يئنون تحت سلطان جبروته وسياط حاشيته وجنوده

.. حتى إذا أثقله السهد وأضناه الفكر . جلس -دون أن يدري- على مقعد في حجرته، ولعب النعاس بجفنيه، فرأى في نومه كأنه على ظهر سفينة تجري فوق سطح بحر واسع .. مياهه حمراء قانية .. تتلاطم أمواجه، وتزأر العواصف حوله، فتعلو سفينته تارة، وتهبط أخرى، وحاول أن ينحو بدفته ليتّجه إلى الشاطئ .. لكن الشاطئ كان يبتعد عنه، وكأن مياه البحر تزداد اتساعاً، ونظر حوله، علّه يجد من ينقذه، فرأى سفينة صغيرة ذات شراع أبيض تحمل ثلاثة رجال في زي لم يألفه..كانت سفينتهم تمضي في هدوء كأنها بمنأى عن تلك الأمواج الهادرة، فراح يناديهم .. يصرخ من أعماقه ليقذوه حتى استيقظ، وهو يصيح:

- انقذوني .. انقذوني .. أيها الرجال

وهرع إليه رجال قصره، وما يزال الظلام يحيط به، وقد

أفزعهم صراخه وكلماته المزقة المختلطة بما يشبه البكاء، فإذا هو قائم فوق مقعده .. كم أحزنهم أمر سيدهم، وقد علت وجهه صفرة قاتمة، وهو الذى كان يتيه فخراً، ولعل البعض منهم قد أسعده ما يسرى من أمر سيده، وقد هزَّه الخوف، وهو الذى تنحنى له الرؤوس مذلّة وتجلّه، أو جبناً ونفاقاً.

حتى إذا أفاق هيرودس للحظة .. عاودته صور حلمه، وهو يرتقب المخاوف، وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فكانت نظراته لا تخلو من شرود وتفكير، وحاول أن يتماسك .. لكن دموعه فضحته!!

فلما كان الصبح من غد .. دخل إليه أحد الجنود .. يُنْبِئه أن رجالاً يطلبون لقاءه، فلما أقبل عليه الرجال .. دهش هيرودس لمرآهم .. إنهم نفس الرجال الثلاثة الذين رآهم فى حلمه فوق السفينة!!

مرة ثانية تتابعت فى ذهنه صور حلمه، والرجال واقفون أمامه، وقد أدهشهم لقاءه. قال أحدهم:

- مولاى ..

- ...... ؟!

لقد جئنا من بعيد .. من أقصى المشرق ..

وقال ثانيهم:

- جئنا لخير لك.

استعاد هيرودس بعض صوابه، وقال.

– فما أمركم؟

قال ثالثهم:

– نحن ندين بالمجوسية .. نرى إلهنا في النار المشتعلة دائماً، والتي لا تخمد أوارها .. نلقي إليها بالقرابين .. هذه شريعتنا.

قال هيرودس:

– فهلاً جئتم تدعوننا إلى دينكم وإلهكم؟!

– لا يا مولاى .. إنما جئنا ناصحين لك

.... ؟!

– يا مولاى لقد وُلد على أرضك منذ سنتين

وسكت الرجل قليلاً، ثم عاد يقول:

من سيكون سبباً في ضياع ملكك، وزوال سلطانك

قفز هيرودس من مقعده .. كأنما سقط في حفرة عميقة، وهو يقول:

– ملكي وسلطاني؟! من ذا الذي يستطيع أن يشاركني فيهما؟!

قال أحد الرجال في ثقة:

– لن يشاركك أحد في ملكك، ولكنه سيقضي عليك

استشاط هيرودس غضباً، وقد ملأه الحنق، وداخله الخوف وأحس كأن الأرض تميد تحت قدميه، وأنه يهوى إلى قرار سحيق لا يدرى مداه .. بينما أخذ الرجال الثلاثة يحكون له عن ذلك النجم الذى ظهر فى سماء بلادهم منذ عامين، والذى ينبئ عن ظهور نبى جديد، وأنهم اتّبعوا هذا النجم من بلادهم .. يقطعون الصحارى ويصعدون الجبال والروابى، ويهبطون الأودية .. حتى وصلوا أرض الخليل، وبيت لحم . وعند ذلك توقف النجم، فأيقنوا أن النبى الجديد فى هذه المنطقة من ملكه.

كان هيرودس يستمع للرجال، وهو يتذكر ما قاله له أحد عرافى قصره ذات يوم عن طفل يولد لعذراء يكون سبباً فى هلاكه، وإذا كان هيرودس قد استنكر على العراف نبوأته، فإن الرجال يؤكدون له صدق ما قاله وأن الأمر أصبح حقيقة.

قال هيرودس للرجال:

– وماذا تريدون أن أفعل؟!

– لعل مولاى يساعدنا فى الوصول إلى المولود الذى نبحث عنه.

– وكيف ذلك؟!

– رجالكم يدُلّوننا على كل الأطفال فى بيت لحم وما حولها، ممن ولدوا خلال العامين السابقين.

قال هيرودس فى ترقّب:

- على أن تأتوني به . أو تدلوني على مكانه

قال الرجال:

- لك ما تشاء يا مولاي.

وأمر هيرودس بإطلاع الرجال على كل من كتب اسمه في السجلات منذ عامين، ليتعرفوا على الطفل المطلوب. على أن يستدلوا بالنجم الذي تابعوه خلال مسيرتهم.

وشعر هيرودس فيما يقوله الرجال الصدق، أو هكذا خُيِّل إليه، فأدرك أنه سيستطيع التخلص من عدوه قبل أن يكبر، ويناصبه العداء.

بينما مضى الرجال في طريقهم مع بعض الجنود يجوبون طرقات بيت لحم وما حولها، ويبحثون عن بُغيتهم كان هيرودس قد أهمَّه الأمر، وطال به الانتظار، ولم يعد الرجال، ثم جاءه من أخبره أنهم غادروا الديار .. عائدين إلى وطنهم . لقد خدعوه في أمله، وابتعدوا عنه بعد أن عرفوا الوليد المطلوب، ومضوا ومعهم سره، فتلاشت آماله كالسراب، وزايله الغضب، واعتصره الحزن، فما يدري ماذا يفعل؟!

(٧)

أقام هيرودس في حجرته لا يبرحهـا .. مطرق الرأس .. وقد أهمه أمره، ووشت سحب الخوف والقلق على صفحة وجهه، ورَبَتْ أحزانـه، فقـد أدرك أنه مقبل على مستقبل تعبث به الأقدار، فبينما هو كذلك .. دخلت عليه أستير .. واحدة من نساء قصره ..

كانت أستير في العشرين من عمرها، وإن بدت أسنَّ مـن هذا، فقد عانت الكثير من ألوان الشقاء، خلال سنيِّ حياتهـا القصيرة .. منذ وفاة أبيها وزواج أمها مـن آخر .. لم تنعم بطفولتها مثل غيرها من أترابها، فلما بلغت الثانية عشرة مـن عمرها .. بَدَتْ معالم أنوثتها، وبرزت فتنتهـا كزهـرة جميلة وسط أحراش كثيفة، فكانت مَطْمعاً لكثير من شباب قومهـا الذين استغلُّوا ضعفهـا وجمالها، فعبثوا بملامـس العفـة فـي جسدها، وتجرَّعت مـن عصير الألم مـا مـلأ نفسهـا غُصَّـة ومرارة، واحتملت الكثير من المكاره، فما وجدت من يقـف إلى جوارها .. يخفِّف عنها مـا تعانيه مـن مذلـة، أو يضمِّد جراح آمالها، أو يمسح عنها ما تشعر به من قسوة .. فهامت على وجهها .. تضـرب فـي الأرض بـلا هـدف ولا أمـل .. تلتمس بـرءاً لأسـقام نفسـها .. حتى التقطهـا أحـد رجـال هيرودس، وقد أعجبه جمالها، فألحقهـا خادمـة بقصـر سيده، فتفتَّحتْ أمام عينيها الصغيرتين كثير من الحقائق والتجارب،

فما مضت بضع سنوات .. حتى كان جمالها طريقاً إلى حُظْوة سيدها .. تسعده كلماتها .. يشعر بالأمان إلى حوارها .. تفيض عليه من أحاديثها ما يريحه، كأنما تريد أن تُرضعه حبَّها، يتعرف على وقع خطواتها .. حتى كان يطلب لقاءها كلما أهمَّه أمر، أو استوحشه الأمان، وسعدت أستير بما تجده من مودة سيدها .. حتى لقد هيأت لها خواطرها وأحلامها أن ترقى لتكون زوجة له .. لم لا؟ وسُمَيِّتها[1] من قبل قد استطاعت أن تتزوج أخشويروش ملك الفرس.

من أجل ذلك .. انتهزت أستير فرصة أحزان هيرودس في تلك الليلة، فدخلت إلى حجرته وكانت ذُبالات الشموع قد انطفأت، فأشعلت واحدة منها، ثم اتجهت إلى النافذة، وراحت تنظر في السماء، وهي تقول:

– ما أجمل القمر الليلة يا مولاي!! كأنما يطلُّ علينا من علياء سمائه.

---

(١) هي أستير من بنات إسرائيل ربَّاها ابن عمها مردخاي بعد موت أبيها . استطاعت بمكرها ودهائها أن تتقرب إلى الملك أخشويروش ملك الفرس،وتزوجها دون أن تخبره بجنسيتها أو ديانتها، وذات يوم حاول وزيره هامان أن يقنعه بقتل كل اليهود في مملكته هؤلاء الذين أسرهم الملك بختنصر، وأخذهم إلى بابل لكن أستير استطاعت بحسن حيلتها أن تقنع الملك بالعفو عن اليهود (لها سفر باسمها من أسفار العهد القديم)

– وما لي وللقمر يا أستير؟ وقد أظلم في نفسي كل شيء.

فضحكت أستير في تودّد، وهي تقول:

– أيُخيفك حقاً ما قاله الرجال المجوس؟!

– وما أكّده لي ذات يوم أحد العرافين ..

– فمتى كان للحرائق أن تصيب مياه البحر؟! .. يا مولاي .. دع عنك مخاوفك.

– ولكن الحرائق قد تصيب الأشجار الخضراء يا أستير أليس كذلك؟

– ماذا تعني بهذا يا مولاي؟

– أعني أبنائي الذين سيرثون مُلكي .. ربما لن يلحق السوء بمملكتي في عهدي، لكني تركت أبناء مازال عودهم الأخضر لا يساعدهم على الوقوف أمام العواصف التي تحيط بهم، فما بالك بالحرائق.

ثم سكت هيرودس، وعاد يقول:

– وهل نسيت هؤلاء الذين يحيطون بي .. يُبدون حبَّهم وهم لي كارهون .. لقد زهدت في ملذّات الحياة منذ مقدم المجوس .. كم أحس أن حياة السعادة التي عشتها من قبل قد تنمَّرت لي، وواجهتني بوجه آخر.

كانت أستير تستمع إلى كلمات هيرودس، وتقرأ على

وجهه هول الفاجعة .. حتى بدت عيناه لا تمسكان دموعهما وهو الذى عنت له الرؤوس، وما يدرى بنفسه وهو يفرِّق بين جفنيه لتنهلَّ دموعه على خديه، وهو يقول فى صوت مختنق:

– إن صورة المستقبل تَثِبُ الآن أمام عينى، حتى ليخيل إلى أنى أشعر بقسوتها.

– فهلا تثق فيما تقوله لك أستير؟ وأنت تعلم خبرتى فى الحياة، وما صارعته من أقدار، وما عشته من تجارب؟!

– ومتى كان للتجارب ومصارعة الأقدار سبيل إلى تجنب متاعب المستقبل؟!

كانت الظروف التى عاشتها أستير وما قاسته فى طفولتها وشبابها من ظلم وقسوة تتراءى أمام عينها .. تجرُّ أحداثها كما لو كانت حاضرة بين يديها .. لاشك أن هؤلاء الشباب الذين عبثوا بعفافها، ومزَّقوا أنوثتها .. قد كبروا، وتزوجوا وأنجبوا .. وبقيت هى وحيدة .. لا يكاد يلمع أمام عينيها نجم حتى يخبو ضوؤه سريعاً .. لا تفيق من كبوة حتى تعاودها أخرى .. حتى آمالها قد ضاعت، فزادت حقداً وكراهية لقومها، ثم هاهو ذا سيدها التى تطمع فى أن تحظى به زوجاً .. لماذا لا تقف بجانبه علَّها تستطيع أن تزيد ارتباطه بها .. كل هذه الخواطر دارت بذهنها، وهى تنظر إلى هيرودس، ثم اصطنعت ضحكة، وهى تقول:

– فهل تستمع لمشورتي؟

– .... ؟!

– يا مولاي .. إن ما يخيفك لا يعدو إلا أن يكون طفلاً لم يزد عمره عن العامين .. أليس كذلك؟!

– بلى .. ولكن لاشك أنه سيكبُر، ويكون فتى، ثم رجلاً .. يناصبني أو أبنائي العداء.

– ولكننا نستطيع أن نمنعهم وما شاءوا.

– وكيف ذلك أيتها الماكرة؟

– نسدّ الطريق أمامهم .. حتى لا يبلغوا نهايته.

– وكيف أسدها، والطرق كثيرة؟!

– نمنعهم من أن يكبروا .. أو يصبحوا شباباً .. نقتلهم في مهدهم .. نقتلع الحياة من صدورهم .. نذبحهم.

وأعادت هذه الكلمات إلى ذهن هيرودس تلك الصورة التي رسمها في خياله . يوم عصف الغضب بفرعون مصر، فذبح أطفال بني إسرائيل، فقال:

– فعل هذا من قبل فرعون مصر، مع ذلك بقي موسى نبي اليهودية. لم يُقتل حتى شبَّ، وكانت نهاية فرعون ومصرعه على يديه.

فقالت أستير في ثقة:

- ذلك لأن فرعون كان يقتل الأطفال عاماً، ويتركهم عاماً آخر، ولعل موسى ولد في عـام عفـو فرعون[1]، لـذا أرى أن يعمل سيدي على قتل كل الأطفال الذين ولدوا لعامين في بيت لحم وما حولها، حتى يستطيع أن يؤمّن ملكه وملك أبنائه.

لم تكن إراقة الدماء أمراً غريباً على هيرودس، فهـو الـذي قتل زوجته وولديه، وهو الذي ذبح صديقيه وكثيراً من أبنـاء الشـعب الذيـن عـارضوه حتـى يـأمن شـرارهم، ولاشـك أن كلمات أستير فتحت أمامه طريقاً يتفق ورغباتـه، ويبعـد بـه عن الخطر الذي يتهدده، لذلك أسرع يقول، وقد عادت إليه بعض من سعادة:

- نعم، فليقم رجالنا بذبح كل الأطفال الذين ولدوا في بيت لحم.

- وما جاورها.

- حتى نقضي على الطفل المولود.

وعادت أستير تقول:

- ولن تستطيع الحرائق أن تصيب الأشجار الخضراء.

- نعم، فليقتل كل الأطفال الذين ولدوا في بيت لحم.

---

(١) حقيقة التاريخ تقول إن هارون هو الذي ولـد في عـام العفـو أي العام الذي كان فرعون يعفو فيه مواليده من الذبح، حتـى يُبقـي على بعض أبناء بني إسرائيل.

- حتى نقضى على الطفل المولود.
- نقتلع الزرع قبل أن يحين حصاده.
- بل قبل أن تورق أغصانه.
- ولن تستطيع الحرائق أن تشتعل

(٨)

هدأت (راعوث) .. واحدة من نساء بيت لحم في فراشها .. تحتضن طفلها الصغير .. ترضعه .. تمنحه من أمومتها مما أودعه الله في قلبها من حنان وعطف. لم يكن قد مضى على عُرْسها عامان، يداعب خيالها آمال كبار لمستقبل ولدها.

.. فجأة .. دخل عليها رجال .. بلا طرقات .. بلا استئذان .. انتزعوا -على كره منها- طفلها الذى لم يتجاوز العام من عمره، وحاولت الأم أن تمنع الرجال وماشاؤوا، فما استطاعت. سألتهم عمن يكونون، وما أمرهم؟! عما اقترفه طفلها من إثم .. لكن الرجال القساة، كانوا أسرع من كلماتها بإجاباتهم .. حين عَمَدُوا السكين في رقبة الطفل، فماتت البسمة على شفتيه، وانقطع ما بينه وبين الحياة من بسمات، وما تملك الأم الملتاعة إلا أن تصرخ، حتى جفَّ حلقها .. تبكى وقد انهلّت دموعها، ودارت الأرض تحت قدميها، وسقطت على الأرض مغشياً عليها .. لا تدرى من أمرها شيئاً!!

فما هي إلا لحظات .. حتى انطلقت عدة صرخات من كثير من دور بيت لحم .. صرخات مرعبة .. يردد صداها في الفضاء الواسع، والرجال يقتحمون الدور الآمنة .. يهتكون حرماتها، وهم ينتزعون الأطفال من أحضان

أمهاتهم .. ويسرعون بالسكين على رقابهم، تنفيذاً لمشيئة سيدهم!!

كان هيرودس قد وجد في نصيحة أستير حلاً لمشكلته، فأمر رجاله بقتل كل الأطفال الذين ولدوا في بيت لحم وتخومها ممن تصل أعمارهم إلى سنتين فما دونهما، وأقام هو لا يهدأ ولا ينام .. يتابع آثار جرائمه!!

فما مضت الساعات .. حتى كانت الشوارع بركة آسنة من دماء الضحايا الأبرياء، وتعالت صرخات النساء عالية مدوّية، وارتفعت صيحات الرجال تجأر بالظلم إلى ربها، وتناثرت الأشلاء .. مِزقًا تملأ الشوارع، واصطبغت الجدران باللون الأحمر الدامي؛ تعلن عن قسوة الحاكم، وأمعن رجال هيرودس في التنكيل بالناس .. لم يكفهم ذبح الأطفال دون السنتين، بل عمدوا إلى الأمهات اللاتي كن على وشك أن يضعن حملهن، فبقروا بطونهن، ليخرجوا أجنّتهن على نصل السكين!!، وتَسَرْبَلت بيت لحم وما حولها بلباس السواد .. حزناً على أبنائها ..

كم سعد هيرودس وهو يستمع إلى ما يفعله رجاله بشعبه، ولعله وجد في هذه الدماء المراقة ريًّا لظمئه، وثأراً لما ران على قلبه من حقد، وكأنه قد استمرأ إراقة الدماء.

وهبَّت رياح الظلم عاصفة على بيت لحم وما حولها .. تقتلع الأمن من نفوس الآمنين، فقد وجد رجال هيرودس فرصة يشبعون بها حبَّهم للقسوة .. فهتكوا أستار الدور

التي دخلوها .. عبثوا بما فيها، واستولوا على ما تصل إليه أيديهم. سلبوا من الرجال كرامتهم، ومن النساء شرفهن.

وإذا كانت هذه مشيئة هيرودس وشيطانه وأصفيائه، فقد شاءت إرادة الله أن تنجو مريم بابنها عيسى. حيث صحبهما يوسف النجار -بأمر من ربه- واتجهوا إلى مصر، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

أما زكريا، وقد أحس بمقدار الخطر الذي يحيط به وبولده .. خصوصاً وقد كان أمره معروفاً لرجال هيرودس لما حباه الله به من ولد في شيخوخته، فدفع بزوجته وابنها، ليمضيا بعيداً .. بينما اتجه هو إلى بيت الرب. يصلي له ويدعوه، وذهب رجال هيرودس إلى بيت زكريا، فراعهم أن الدار خالية من هذا الطفل الذي يبحث عنه سيدهم .. أليس هو الذي كانت ولادته معجزة .. من أب أشرف على المائة من عمره أو يزيد، ومن أم عاقر عجوز، بلغت السن التي لا تنجب ولا تدرُّ لبناً، .. من أجل ذلك كان عليهم أن يعثروا على الطفل مهما كلفهم ذلك .. حتى لقد أقبلوا على راحيل جارة أليصابات .. هاجموا دارها، وانتزعوا طفلتها من أحضانها، وذبحوها دون أن يدركوا حقيقتها، غشيت عيونهم عن الحقيقة، وأظلمت قلوبهم مما أصابها من قسوة، ومن فرط ما ملأهم من حقد، فخلطوا بين الحقائق والأوهام، فلما استيأسوا . اتجهوا إلى هيكل الرب، فوجدوا زكريا هناك يصلي .. لعله كان يدعو ربه من أجل ابنه، أو

من أجل كل الأطفال الأبرياء.

أقبل رجال هيرودس على زكريا وهو قائم بين الهيكل والمذبح، وقد بسط يديه بالدعاء لربه، وقبل أن ينتهي من صلاته ودعائه .. جذبه أحدهم في قسوة أكبر على شيخوخته، وراحوا يسألونه عن ابنه .. أين هو؟ .. فلما لم يجدوا منه جواباً يطفىء لهفتهم .. قتلوه في المكان الذى اعتاد أن يلتقى فيه مع ربه.

وتذكُر بعض الروايات أن دماء زكريا تجمَّدت، حتى كان يسمع صوته في بيت الرب لعدة أيام .. كم حزن الناس لما حدث لكاهنهم الذى لم يسعد طويلاً بنعمة الرب عليه.

واستمرت مذابح رجال هيرودس في بيت لحم وما حولها عدة أيام .. ذبحوا خلالها آلاف الأطفال الأبرياء.

ترى؟ هل استطاع هيرودس بما فعله رجاله أن يقضى على خصمه .. ذلك الذى سينتزع ملكه؟! وهل استطاعت أستير أن تحقق آمالها في الانتقام ممن أجرموا في حقها؟!

(٩)

ما كادت تنتشر مذابح هيرودس .. حتى أحست أليصابات بالقلق على ابنها يحيى، فحملته، رغم ضعفها وشيخوختها .. ومضت به بعيداً .. إلى البادية .. كان عزيزاً عليها أن تترك، زوجها وأهلها إلى منطقة جرداء نائية .. كم تمنت لو صاحبت مريم ويوسف وعيسى في رحلتهم إلى مصر .. لكنها لا تملك أن تفعل، فلتكن مشيئة الرب كما شاء .. وحزنت أليصابات حين عرفت بما حدث لزوجها، وكيف لقى ربه شهيداً في رحاب بيت الرب المقدس الذى طالما صلى فيه، ووعظ قومه .. لقد تركته دون وداع، ولم يقدر لهما أن يلتقيا، وكان ذلك دافعاً إلى أن تتمسك بالبقاء في مهجرها النائى مع ابنها فيتلك البرية البعيدة الممتدة ما بين حبرون والشواطئ الغربية للبحر الميت .. حيث تقضى بقية حياتها. تعنى بابنها هبة الرب لها .. كثيراً ما كانت تعود خفية إلى ديارها، لتحضر الطعام لها ولابنها، ولتتنطس أخبار قومها، والخوف يقلقها .. حتى بعد أن انتهت مذابح هيرودس.

لقد كُتِبَ على يحيى أن يعيش فى البرية[١] مع أمه وحيدين لا ثالث لهما، وكانت أمه خير معلّم له .. استطاعت أن تلقّنه دروس العلم والدين التى حفظتها عن

(١) كانوا يطلقون على البرية (أرض الخراب).

زوجها وأبيها، وكانت تستعيد معه صورة ديارهم .. وتلك الصور التي لم يكن يحيى يتذكرها إلا كخيال في ذهن طفل صغير، فلم يكن بعد قد أدرك كل ما يحيط به .. كثيراً ما استعادت أمه معه صورة هيكل الرب في قريته حين كان يذهب مع والده .. كم سعد يحيى، وهو يرى أمه تصلي للرب وتدعوه، ولابد أنه كان يشاركها في صلاتها ودعائها بكلمات متعثرة .. كثيراً ما قالت له أمه:

– (وأنت أيها الصبي. نبي العلي تدعى[1])

ربما كان يحيى لا يفهم مدلول تلك العبارة التي يسمعها من أمه .. ولكن كلماتها احتفرت في ذهنه خلال سنواته التي عاشها .. هكذا مضت الحياة بيحيى وأمه .. لا يربطهما بأهلهما وديارهما إلا بعض الزيارات القصيرة المتباعدة، وبعض الأخبار التي تصلهما من المارّين عبر هذه البرية ما بين الشمال والجنوب والشرق والغرب في رحلات قوافل تجارية أو سياحية.

ست سنوات مضت .. حتى شاء الرب لأليصابات أن ترحل عن العالم، لتلحق بزوجها مع الصديقين والشهداء والصالحين، وليبقى يحيى وحيداً في تلك البرية الواسعة .. لقد شاء رجال هيرودس أن يحولوا بينه وبين أبيه، وشاء القدر أن يباعد بينه وبين أمه، وهكذا بقي في الصحراء

(١) إنجيل لوقا الإصحاح الأول.

وحيداً.

كانت البريّة ليحيى كتاباً مفتوحاً طبيعياً يقرأ من خلال سطوره مظاهر قدرة الرب ونعمه، ويتعرف على ما يراه من ظاهرات طبيعية يعيشها ويتأملها، ويفكر فيها بعقل المؤمن الواعي المُلْهم.

فهذه الشمس تشرق كل صباح .. تغمر بنورها كل البرية: رمالها وأحجارها .. روابيها وسهولها وجحورها وكهوفها .. لا تحجب أشعتها عن جزء منها، فإذا انتهى النهار .. جمعت أشعتها في أطراف البادية في جلال، ومضت وراء الأفق البعيد .. إلى حيث يشاء الرب في مكان آخر.

وهذا القمر .. يبدو في السماء .. هلالاً في بعض الليالي وبدراً مكتملاً في ليالي أخرى .. يمنح العالم ضياءه، فإذا غاب القمر .. بدت النجوم المبعثرة في السماء كمصابيح تمزق أستار الليل المظلم بأشعتها الذهبية التي تأتي من بعيد.

حتى هذه الأشواك المتناثرة في البادية، وتلك الشجيرات المتقاربة حيناً أو المتباعدة حيناً آخر .. تتحمل جفاف البرية وظلمتها، فإذا ما أصابها بعض من المطر .. انتعشت فيها الحياة، فأينعت وأزهرت، وبدت سعيدة بنعمة ربها.

كم سعد يحيى وهو يلجأ إلى شقوق في الجبال، فيجد فيها عسلاً حلو المذاق صافياً، يُشبع به جوعه. وكثيراً ما قضى الساعات يتابع جماعات النحل وهي تخرج في الصباح

تبحث عن طعام لها .. يلهمها الرب مكانه، فتزتشف من رحيق أزهار بعض تلك النباتات، ليتحول إلى عسل؛ فيه طعام وشفاء للناس.

كثير من صور الحياة في البرية التي عاشها يحيى.
جماعات الجراد التي تتكاثر فيها، وهذه الحيوانات والهوام التي تآلفت مع بعضها، وتلك التي عَدَتْ على غيرها .. تسلبها حياتها، وهذه التي تمضي نهارها في البحث عن طعامها، وتلك التي تجدُّ في البحْث عنه ليلاً، وكلها تأوى إلى جحورها ومساكنها متى انتهت مما قدره الله لها.

من أجل هذا .. كانت حياة يحيى تتّصف بالتقشف .. طعامه من عسل النحل والجراد، وملبسه من وبر الإبل أو جلود الحيوانات التي تنفق في الصحراء، وكأنما كانت هذه الصور التي يراها، والحياة التي يحياها طريقاً لاتصاله بالرب، تكشف عنه الحجاب أمام عينيه، فرأى بقدرة الربِّ ما لم يره غيره، ومكّنته من أن يعرف الأشياء على حقيقتها.

– ﴿... وآتيناهُ الحُكمَ صَبِياً﴾(١)

كثيراً ما اتصل يحيى بالمارين العابرين للبرية، ورجال البدو، فعلم منهم ما يقترفه الحكام من ظلم وقسوة، وما يفعله رجال الدين الذين يمالئون سادتهم من الأدوميين والرومان، ويتاجرون بعقول الناس في أسواق الجهل

---

(١) سورة مريم، الآية (١٢)

والإلحاد، كثيراً ما سمع حداء الحادى فى قافلة تجارية، وهو يتغنى بكلمات توشك أن تكون كغناء النادب .. تنبئ عن إحساس الشعب بسياط حكامه الذين منعوا أشعة الرحمة ونسمات الحرية عن الناس، ولعله سمع فيما سمع أخبار موت هيرودس الكبير، وابنه انتيباس الذى خلفه فى ربع الخليل، واستمر فى مسيرة أبيه من قسوة وفساد وظلم .. حتى لقد أدرك يحيى وهو فى وحدته وكهفه مع الحيوانات المتوحشة والحشرات الضارة .. أنه أكثر أمناً من هؤلاء الذين يسكنون القصور .. يرائى بعضهم بعضاً مخافة أن يسلب بعضهم بعضاً.

حتى كانت كلمة الله على يحيى

(١٠)

ذات يوم .. كان رحال قافلة يمرُّون في الطريق الممتدة ما بين أورشليم وأريحا .. أذهلهم ذلك الفتى النحيل الجسم الذى يتدلى شعره على كتفيه، وهو يقول:

– (توبوا، فقد اقترب ملكوت السموات)

كانت هذه صرخة يحيى عليه السلام .. تنفيذاً لمشيئة الرب الذى بعثه رسولاً إلى قومه .. يدعو الناس إلى التوبة والتوحيد، والكفّ عن الخطايا والدَّنس

كان يحيى يهتف:

– (إن الله أمرني بكلمات أعمل بها، وآمركم أن تعملوا بها .. أن تعبدوا الله، فمن أشرك بالله وعبد غيره، فهو مثل عبد اشتراه سيده، فراح العبد يعمل لغير سيده، إن الله أمركم بالصوم والصلاة وبذكره، ليكون حصناً لكم، ولا نجاة لكم بغير هذا).

وسرعان ما انتشرت أنباء هذا الشاب الواقف على الطريق بلباسه الخشن من وبر الإبل، وقد تمنطق بحزام من جلد .. يدعو الناس إلى التوبة، ولم يكن الناس يعرفون مَنْ هذا الفتى، وما أمره؟ لكن كلماته الصادقة، واللهجة التى يصرخ بها .. اتخذت طريقها إلى قلوب المؤمنين .. كانت تؤكد أنه ليس واحداً من هؤلاء الذين يدُورون فى فلك

الحاكم .. ولعل هذا الفتى قد أعاد إلى أذهان النـاس صـورة أشعياء النبي، مما دفع بالكثير إلى الذهـاب إليـه، والاستماع إلى صرخاته وموعظته .. كثير مـن الفريسيين والعشاريين، ومن القبائل مثل بنـو إسماعيل الذين جاءوا إليه من برية جلعاد. كثير من أصحاب المهن المختلفة .. كالصيادين مـن بحيرة جنيسارت. الذين اتخذ منهم يحيى تلاميذ له.

لقد أدرك الجميع الصراحة في كلمات يحيى، فقد كان لا يعبِّر عن أمور شخصية أو دنيوية. تلك التي طغت على الناس في هذا العصر حتى قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ .. لكنها كلمـات تدعو إلى التوبـة، كما وضح من صرخات يحيى أنه لا يخشى لومة الحكام، ولا بطش ذوي المناصب العاليـة. ووجـد النـاس فـي هـذه الصرخات اقتناعاً وإعجاباً، وفرصـة للخلاص مما هـم فيـه، وكأنهم كانوا يتعطشـون إليهـا، لـتروي ظمأ نفوسهم من كثرة ما ران على قلوبهم من حقد، وما اقترفوه من آثام.

فما هي إلا أيام، حتى ازدحمت الطرق بالناس، وأصبح ليحيى تلاميذ، فكان عليهم أن يتجهـوا بدعوتهـم إلى مكـان أكثر عمراناً وسكاناً؛ لتكون دعوتهم أكثر انتشاراً، ولتصل صرخات يحيى إلى رجال الحكم والدين.

(١١)

أشرق صباح ذات يوم، فمضى الناس في طرقاتهم ما بين أورشليم وأريحا وبيت لحم .. يتذاكرون شؤون حياتهم وأمور دينهم، وما آل إليه أمرهم من قسوة الحكام، وما هم مقبلون عليه من أيام، ويتذاكرون مع هذه الأحاديث .. ذلك الفتى الطويل النحيل الذى يقف على مشارف البادية .. يدعو الناس إلى التوبة والعودة إلى تعاليم الرب .. بعد أن غدا رجال الدين يأخذون من حقائق الدين أقلّها، ويتكرون أكثرها.

وعند منطقة (بيت عنيا) على الشاطئ الغربى لنهر الأردن قرب أورشليم، وعلى غير بعيد من أريحا جاءهم صوت يحيى صارخا:

– (توبوا، فقد اقترب ملكوت السموات)(١)

كان يحيى بن زكريا قد ترك مكانه على مشارف البرية، واتخذ (بيت عنيًا) مقراً له .. على نهر الأردن .. حيث يتسع المجرى إلى مائة متر، ويصل عمقه ما بين خمسة وسبعة أقدام، وحيث يزدحم الناس في هذه المنطقة، ليدعوهم إلى التوبة عن المعاصى ويعمدّهم بماء النهر النقى الذى يصل إليه عن

(١) ملاحظة كثير من الكلمات التى وردت على لسان يحيى عليه السلام فى هذا الباب، والأبواب التالية . مصدرها أناجيل متى ويوحنا ولوقا.

طريق ذوبان الثلوج من فوق جبل الشيخ.

هنالك.. تذكر الناس أن يحيى هو ابن الكاهن زكريا والبارة التَّقية أليصابات الذى وهبه الرب لهما بعد طول انتظار، ولاشك أنهم تذكروا أيضاً مذابح هيرودس الكبير، مما دفع أليصابات أن تهرب بابنها إلى البرية .. كان ذلك منذ ثلاثين عاماً مضت، وكبر يحيى وعاد إلى القوم، يدعوهم إلى التوبة، وهجر المعاصى.

من أجل ذلك تقاطرت وفود كثيرة إلى حيث وقف يحيى عليه السلام بلباسه الخشن وشعره الطويل وقامته المديدة، وصرخاته المدوِّية .. بعض هؤلاء جاءوا تدفعهم الرغبة فى التوبة، ولعلهم اعتقدوا أن يحيى هو النبى المنتظر الذى بشَّرت به كتبهم.

وأقبل فيمن أقبل جماعات من الكهنة اللاويين والفريسيين والمكابين الذين يدفعهم حقدهم على دعوة يحيى، ليدفعوه إلى أن ينطق بكلمات يتخذون منها تكأة للإيقاع به لدى سادتهم من الحكام والرومان. وبين هؤلاء وهؤلاء من جاءوا يستطلعون الأمر ويشهدون ما يجرى.

ورأى الجميع يحيى عليه السلام وهو يقف شامخاً، وقد تمطق بحزام من جلد، وهو يصيح:

- (توبوا .. فقد اقترب ملكوت السموات .. اعبدوا الله وحده)

لم يكن يحيى عليه السلام خطيباً فصيحاً، ولا محدِّثاً لبقاً، ولا مناقشاً يقنع الحجة بالحجة، والدليل بالدليل، ولكن صوته الصارخ النابع من أعماق قلبه ونفسه وعقيدته .. كان يؤكد صدق دعوته.

واختلف الناس فيما بينهم .. قال قائل منهم:

– فتى أقفرت حياته من الأصدقاء، فراح إلى البرية ينشد الراحة والوحدة فى الخلاء .. بعيداً عن الناس، ثم عاد يهذى بهذه الكلمات.

وقال آخرون:

– رجل حُطِّمه الحنق على قومه، وما أصابهم من قسوة وظلم، فأخذ يصرخ فى الهواء الواسع حوله. لعله يعبِّر عما فى أعماق نفسه مما أصابه من خوف .. تُفْزِعُه أمور لا يدريها .. تفرَّقت به سُبُل التفكير، فما عاد يدرى من الصحيح كله أو بعضه .. كأنما يتمنَّى خوض غمار معركة، لا يدرك نهايتها، فهل يستجاب لصرخاته؟!

كان الناس فى هذه الفترة قد نسوا الآخرة، والبعث والثواب والحساب، ودعوتى إبراهيم وموسى، واعتقدوا فى معتقدات الوثنيين من البابليين والأشوريين وغيرهم، من أن المرء يثاب على عمله .. إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنكروا الجنة والنار، والعقاب والثواب .. حتى قال قائلهم: (إِنْ هى إلا حَيَاتُنا الدُّنيا نَمُوتُ ونَحْيا، وما نَحْن بِمَبْعُوثِين)، ولعل هؤلاء وجدوا فيما يدعو إليه يحيى فرصة

لإحياء تعاليم موسى وشريعة إبراهيم، فقالوا:

– إنها البشرى .. بداية لطريق الهداية، وإخماد نيران العداوة، وتطهير النفس مما علق بها من أدران الخطيئة، فما يضيرنا أن نسمع له؟

وسواء أكان هذا الرأى أم ذاك، فقد تقاطرت جموع الناس: ليباركهم يحيى، يعمِّدهم بماء النهر. يغسلهم من خطاياهم، وما علق بنفوسهم من أدران الإثم، وهو يصيح:

– (أعدوا طريقاً للرب .. اصنعوا سُبُله قويمة)

هنالك .. أقبل عليه جمع كبير من الفريسيين والصدوقين وقد لمعت فى عيونهم صور شتى، فحاجهم صوته يزعجهم:

– (يا أولاد الأفاعى .. من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى إليكم)

كان ماء النهر يمضى صافياً .. نقياً .. طاهراً، والناس يزدحمون حول يحيى، وهو يعمِّدهم .. يستلهمون من كلماته بصيصاً من الأمل فى غد مشرق .. تقىٍّ من الخطايا والدنس .. حتى لقد تمنى هؤلاء أن تصل كلماته إلى مسامع الحكام ورجال هيرودس .. علها تنفذ إلى أعماق قلوبهم، فيكفّوا عن عدائهم للشعب، ويعودوا إلى الرشاد والصواب بينما كان يحيى يهتف من أعماقه:

– (فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة، ولا تفكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا إبراهيم أباً، لأنى أقول لكم أن الله قادر على أن

يقيم من هذه الحجارة أولاد إبراهيم)

ربما دهش القوم لما يقوله يحيى، ولكنه كان واضحاً صادقاً، وعاد يحيى عليه السلام يقول:

– (ها إن الفأس قد وضعت على أصل الشجرة، فكل شجرة لا تثمر جيداً تُقطع، وتُلقى فى النار).

كان بعض جنود الحكام قد توافدوا إلى حيث يقف يحيى .. ربما جاءوا بدافع حبهم للمشاهدة .. أو لعل الحاكم هو الذى دفعهم إلى ذلك، ليخبروه بما يقول، وحينما شاهدوه وسمعوا صرخاته .. قال قائل منهم:

– وماذا نصنع نحن يا فتى؟!

وجاءهم صوت يحيى صادقاً:

– (لا تظلموا أحداً، ولا تشوا بأحد) .

كم أحس هؤلاء الجنود بمقدار هذه النصيحة، وتذكروا صور الظلم التى ارتكبوها فى حق الشعب .. طواعية أو إذعاناً لأمر سادتهم .. حتى غدت حياة الشعب طوع أمرهم .. يصرِّفونها على ما تهوى نفوسهم، وما يأمرهم به سادتهم، مما دفع بشىء من الخوف يتسرب إلى قلوبهم .. لعله كان بداية لنور يضىء ما ران عليها من ظلمات بعضها فوق بعض، وكأنهم فيما سمعوا يقذفون الإثم عن صدورهم، فأفاقوا إلى الصواب.

وأقبل جماعة من العشارين المبغضين واللاويين

والصدوقين، فصاح فيهم يحيى:

- (لا تستوفوا أكثر مما فُرض لكم، بـرُّوا الفقـراء، واعطفوا على المساكين).

كانت جموع الناس الكثيرة تتزاحم حول النهر حين أقبل وفد من رجال الدين؛ أرسلهم رؤساء الكهنة .. هؤلاء الذين يعرفون الحقيقة، ولكنهم يخفونها، فما غمض عنهم اقتراب ظهور نبي جديد، ولكنهم يخشون على مراكزهم أكثر مما يغارون على دينهم، ربما جاءوا ليتأكدوا من هو ذلك الصوت الصارخ الذي يسبق ظهور المسيح مخلص الشعب، أو لعل رؤساءهم أمْلوا عليهم من الأسئلة ما يحاولون به أن يُوقعوا بين الفتى والحاكم، ليؤلِّبوا عليه الرومان .... بينما كان يحيى يقول للجموع التي حوله:

- (من عنده ثوبان، فليعط من ليس له، ومن عنده طعام، فليتقاسمه مع من ليس عنده)

تقدم أحدهم من يحيى، وقال له:

- من أنت؟ ولماذا تعمد الناس؟

- ....

كانت مياه النهر ما تزال تتدفق، وقد وقف بعض تلاميذ يحيى عليه السلام ينظرون إلى معلمهم .. كأنهم يستحثونه على الكلام .. بينما كان رجال الدين يمسحون على ذقونهم البيضاء الطويلة الكثيفة، أو يتطاولون بأعناقهم إلى السماء،

فقد أعجزوا يحيى عن النطق والرد على سؤالهم: خُيِّل إليهم أن سكوته سيطول، مما يدفع الناس إلى الابتعاد عنه، أو لعله سيقول كلاماً يجدون فيه توبيخاً لسادتهم .. حتى لقد ارتفعت أصوات تستنكر صمت يحيى . تدفعه إلى الإجابة، وأصوات أخرى تُنكر على السائل سؤاله.

وانتهز رجال الدين صمت يحيى والمشاعر المتباينة من اليأس، فقال أحدهم في سخرية مكتومة:

– هل أنت إيليا[1].

ولشد ما كانت دهشة الجميع حين قال يحيى:

– لست أنا.

وعاد أحد رجال الدين يقول، وقد وجد في ذلك فرصة له:

– فمن أنت؟ أأنت المسيح؟

سؤال أرادوا به إحراج يحيى عليه السلام أمام الجموع المتزاحمة المتعطشة لمعرفة الحقيقة، أو ليزدادوا إيماناً به .. لكم

(١) إيليا: النبي (٨٧٥-٧٥٣ ق.م) من أنبياء بني إسرائيل عاش في منطقة جلعاد -حارب العبادات الوثنية التي أدخلتها إيزابيل زوجة آخاب، وكانت له معجزات منها إعادة الحياة إلى امرأة أرمل. وإنزال المطر بعد انقطاعه لعدة سنوات قرب جبل الكرمل- عارض كهنة بعل وعشروت وطاردته إيزابيل، فهرب إلى صحراء سيناء، فرفعه الله إلى السماء فوق مركبة نورانية، وهو يعرف عند المسلمين بالنبي إلياس عليه السلام

تمنى كثير من الناس لو قال يحيى إنه المسيح الذى تتحدث عنه كتبهم وأسفارهم .. لكن الدهشة ارتسمت على وجوه الجميع حين سمعوا يحيى يقول:

- لست المسيح.

ودارت بين الجموع همهمة مسموعة، ولابد أن الشك غزا صدور من كانوا يؤمنون بيحيى، وتساءلوا فيما بينهم: إذا لم يكن هو إيليا ولا المسيح، فمن يكون إذن؟

وعاد أحد رجال الدين، وقد وجد الفرصة مواتية . يقول:

- فمن أنت؟ ماذا تقول عن نفسك؟

قال يحيى:

- (أنا صوت صارخ فى البرية، قوّموا طريق الرب)

وعاد أحدهم يقول:

- فما بالك تعمد الناس .. إن كنت لست المسيح، ولست إيليا النبى؟

قال يحيى:

- (وماذا يضيركم؟ أنا أعمّد الناس بالماء، ولكن يأتى من بعدى من يعمدكم بالروح القدس)

وسكت الجميع .. ألجمتهم المفاجأة .. بينما عاد يحيى عليه السلام يقول:

- (سيأتي بعدى عظيم .. عظيم جداً .. من هو أقوى مني، وأنا لا أستحق أن أحل سيور حذائه)

- .... ؟!

- (أنا البواب الذى اتخذ مكانه على باب حظيرة الخراف لإدخال الراعى الحقيقى)

- .... ؟!

- (أنا كوكب الصبح الذى يبشّر باقتراب النهار، كالفجر يحتجب بعد ضوء النهار)

وما يملك الناس وهم يتعمدون فى النهر إلا أن يتعجبوا من كلمات يحيى .. وبينما انصرف كثير من رجال الدين دون أن ينالوا مقصدهم .. كان يحيى مازال يهتف:

- (توبوا فقد اقترب ملكوت السموات)

(١٢)

غمر الفجر بنوره روابي فلسطين وما حولها، فهجرت الطيور أعشاشها، ومضت تحلق في سماء الله الواسعة، تطلب قوتاً لها ولصغارها، وهبّت نسمات الصبح صافية ندية .. تعطّرها أزهار التين والزيتون، وبدا قرص الشمس في الأفق أكثر ما يكون جمالاً وبهاء.

ومضى الناس إلى مألوف حياتهم .. علّهم يصيبون بعضاً من خيرات الله.

في ذلك اليوم امتلأت الطرق المؤدية إلى منطقة بيت عنيا بالناس الذين جاءوا ليعمدّهم يحيى بن زكريا بالماء المقدس، وليستمعوا إلى نصائحه ومواعظه

وقدم في هذا اليوم مع القادمين جماعة من الأسينيين .. هؤلاء الذين يؤمنون بالطهارة، ويميلون إلى العزلة والصوم والزهد والتقشف .. الذين كانوا يهجرون المُدن والقرى ويلجؤون إلى المغارات والكهوف، ويسْتعذبون حرمان الجسد ويطعمون أبسط الطعام، ويعولون أنفسهم ببعض الأعمال الخفيفة. لعل هؤلاء وجدوا في حياتهم صورة لتلك التي عاشها يحيى في البرية .. أو لعلهم اعتقدوا أنه ينتمي إلى جماعتهم، وشجعهم على ذلك . ما عرفوه عن قصة ذلك العشارى "زكا" الذى كان مُتحجّر القلب، فاقد الصواب والذى عُرِف بقسوته وظلمه في جمع الأموال من

الشعب، حتى إذا عمَّده يحيى عليه السلام .. صار إنساناً جديداً، وتاب وأعاد الحقوق إلى أصحابها، وأخذ يوزّع الصدقات على الفقراء والمساكين، حتى لقد اعتقد الناس أن يحيى هو المسيح المنتظر الذى سيكون خلاص العالم على يديه، وكثيراً ما كان المعتمدون يشعرون بالفرح والصلح مع الله، والرغبة فى التحول إلى الحق، وأنهم بهذه التوبة قد خرجوا من الظلام إلى النور، حتى أن بعضهم كان يقول لغيره:

- كأن الرب قد حفظ يحيى من سكين هيرودس الكبير ليدَّخره لمشيئة أرادها لخير الناس.

ربما أحس يحيى بما يدور فى أذهان الناس، فارتفع صوته عالياً:

- (سوف يأتى من بعدى من يفرز الحنطة من التبن)

كان رجع الصدى قوياً .. امتد لمسافات طويلة .. حتى جذب إليه المنصرفين، وهو يقول:

- (عند ذلك سيعُمُّ الفرح جميع الأماكن وستزدهر الزنابق، وسوف تُبْصِرُ العيون ضوء النهار)

كان النهار[1] قد انتصف أو يزيد، والهواء البارد يلفح وجوه المزدحمين الذين يعجُّ بهم شاطئ النهر. كل فى انتظار دوره ليعمده يحيى، فبينما هم كذلك أقبل شاب فى الثلاثين

(١) كان ذلك يوم الحادى عشر من شهر طوبة، ولذلك يحتفل المسيحيون بهذا اليوم (يوم الغطاس) أو عيد الظهور الإلهى.

من عمره ذو عينان زرقاوان فاحصتان وشعر أسود.

وللدهشة الجميع حين شعروا أن صوت يحيى قد انخفض وثلعثم لسانه، وكان كنسر يحلق في السماء، ثم سقط فجأة على الأرض!! لقد تساءل الناس فيما بينهم عما أصابه، ولماذا هدأ صوته الصارخ .. لكن يحيى عاد يقول:

- (لقد أتى المسيح .. نزل إلى الشاطئ .. أراه واقفاً وسط جماهيركم).

كان يحيى عليه السلام قد نُبِّئ من الروح القدس بظهور المسيح، ولعله فيما نبئ به قد رأى صورة وجهه، فما كاد يرى الفتى ذا العينين الزرقاوين حتى قال:

- (في وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه، ولست بمستحق أن أحل سيور حذائه).

كان الشاب ذو الثلاثين عاماً قد اقترب، ليتّخذ مكانه في انتظار دوره .. لكن يحيى نظر إليه كأنه عرفه .. لعلهما تذكرا صور طفولتهما قبل أن يفترقا، أحدهما مع أمه إلى مصر، والآخر مع أمه إلى البرية، وكأنما أحسا أن رباطاً قوياً يربطهما .. ربما كان رباط القربى .. قرابة الأمومة أو رباط الروح الذى يجمعهما، ولعلهما استعادا أحداث طفولة ما قبل السنتين، وإذا كانت الأيام قد باعدت بينهما لأعوام طويلة، فقد شاءت إرادة الله أن تجمعهما، وأن يلتقيا عند ماء النهر في ذلك اليوم.

واقترب الشاب من يحيى، ليعمده مثل غيره من الناس .. لكن يحيى نظر إليه، وقال له في مودة:

- (فأنا المحتاج أن أعتمد منك، أنت تأتي إليّ).

قال الفتى:

- (أسمح الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر).

وعندما خرج الفتى من الماء .. انفتحت السماء، وانشق الحجاب أمام عيني يحيى، فرأى الروح القدس على شكل حمامة جميلة الحركة، تنزل،وتستقر على رأس الفتى الذى أمامه، فلم يتمالك يحيى عليه السلام نفسه، وبرقت عيناه، ولمع وجهه في السماء، وهو يصرخ مشيراً إلى الفتى:

- (هذا هو الذى قلت سيأتي من بعدى)

وسكت يحيى قليلاً، كأنه فتح الباب للراعي الحقيقي، ولعله أدرك أن مهمته قد أوشكت أن تنتهي.

وتعطشت الجموع المزدحمة على شاطئ النهر، ليعرفوا مَنْ هذا الذى يتحدث عنه يحيى .. عن الذى يرفع عن العالم خطاياه .. عن المسيح الذى ينتظرونه تحقيقاً لما جاء في كتبهم.

وعرف الناس فيما عرفوه أو تذكروه عن هذا الفتى ذى الثلاثين عاماً أنه عيسى ابن مريم، تلك الفتاة القروية التى حملت به دون أن يمسَّها بشر، فكانت معجزة شاءها الرب لها، وعرفوا فيما عرفوه أنه هرب مع أمه إلى مصر، ثم عادا ويوسف النجار إلى الناصرة .. حيث كان يعيش كنجار في

حانوته بكسب قوته وقوت أمه .. سنوات طوال أعادت إلى أذهان الناس صوراً عديدة لأحداث كثيرة.

كان يوماً خالداً ذلك الذى شهده الناس يوم نزول الوحى على عيسى، ليكون رسول السلام إلى قومه .. يهديهم إلى الطريق المستقيم، ويبعدهم عن نزعات الشر والضلال. ومنذ ذلك اليوم لم يعد حديث الناس قاصراً على يحيى . بل شاركه عيسى ابن مريم الذى مضى إلى البرية حيث يقضى أربعين يوماً يجرِّب مع الشيطان .. يصوم .. بينما كان يحيى ما يزال يهتف من أعماقه:

- (هذا هو النبى .. المسيح عيسى .. آمنوا به) ..

(١٣)

كما ينبثق نور الفجر الواضح من ظلمة الليل الحالك .. كان ظهور دعوتي يحيى وعيسى عليهما السلام ميلاداً لنور أضاء القلوب المظلمة، وهدى النفوس الحائرة التي عاشت طويلاً تحت وطأة الجهل والكفر والشقاق .. متعطشة إلى السلام والمحبة والعدل والإيمان، وإن تكاملت الدعوتان وتلازمتا، فقد كان صاحبا الدعوتين صنوان .. نبتا في أرض واحدة، وارتويا من معين واحد، وعاشا في ظروف سياسية واجتماعية واحدة .. تربطهما قرابة دم، وإذا كانت مدرسة يحيى الصحراء بما فيها من ظاهرات طبيعية .. حتى أطلقوا عليه (ابن الصحراء)، فقد كانت مدرسة عيسى أكثر اتساعاً، لأنه رأى بعينيه وواكب كثيراً من الأحداث التي عاشها في مصر وفي وطنه، وشارك الناس صلواتهم ودعاءهم وآمالهم في الخلاص مما يعانون منه .. وإذا كانت دعوة يحيى قائمة على التوبة وتطهير النفس من الخطايا، فإن دعوة عيسى كانت تقوم على المحبة والسلام والعودة إلى تعاليم الرب الذي ناصره وعضّده بمعجزات حسية ومادية خارقة.

لكن رجال الدين والحكم أدركوا ما في الدعوتين من خطورة على مراكزهم الدينية والدنيوية، فحاولوا أن يُوقعوا بين صاحبي الدعوتين حين جاء إلى يحيى ذات يوم من قال له:

– يا معلم .. هو ذا[1] الذى كان معك فى بحر الأردن الذى شهدت له، هو يعمد، والجميع يأتون إليه.

لكن يحيى الذى أودع الله فى قلبه الحب والطهارة كان أكبر من أن تهزه ألسنة خبيثة أو تشتعل فيه شرارة من حقد، فلم يلتفت إلى ما يقوله الحاقدون، واستمر فى دعوته .. حتى لقد اضطر إلى مغادرة مكان معموديته من بيت عنيا إلى منطقة عين نون على الشاطئ الغربى لنهر الأردن قرب ساليم . حيث يوجد كثير من المتصقين به، والذين صاروا له أنصاراً وتلاميذ، وكان يحيى يسعد كثيراً وهو يستمع إلى أخبار المسيح عيسى وتنقلاته ما بين الجليل والناصرة وأورشليم، وما حباه الله به من معجزات أجراها على يديه.

ووصلت إلى مسامع هيرودس رئيس الربع ما يفعله يحيى وما يقوله، وعلم من رجال قصره أنه ابن الكاهن زكريا الذى كان مولده خلال عصر أبيه هيرودس الكبير، ولاشك أن هذا قد أعاد إلى ذهن هيرودس الصغير أحداثاً مضت .. مذبحة أبيه ونبوأة أحد عرافى قصره والرجال المجوس. وأن يحيى هذا هو العدو الذى يخشى منه، وأن عليه للمحافظة على ملكه مواجهته للخلاص منه، أو ليداهنه ويضمه إلى صفوفه. لذلك كان هيرودس يرسل رسله وجواسيسه إلى يحيى، لينقلوا إليه صورة لما يرونه، وكثيراً ما ذهب هو بنفسه إلى معمودية يحيى خفية، وراقبه مما وجد فيما رآه وما سمعه

---

(١) يقصد المسيح عيسى.

.. إلا أنه رجل بار تقي، فاعتقد أنه قديس أو كاهن ملتزم بمبادئ دينه، فما يضيره أن يلتقي به؛ فلاشك أن هذا اللقاء بينهما سيكون مكسباً لهيرودس وليرتفع شأنه، وتتحسن صورته أمام شعبه، وبذلك يصرف الناس عن مفاسده التي فاحت رائحتها، وربما وجد هيرودس في هذا اللقاء تسلية لوقته، أو محاولة من جانبه لضم يحيى إلى حاشية قصره، مما يحقق له مكاسب شخصية، رسمها له في خياله شيطانه.

لكن هيرودس وهو سيد الشعب وحاكمه كيف يتواضع ويذهب بنفسه إلى يحيى؟ فلماذا لا يرسل إليه من يحضره إلى قصره؟ ووجدت هيروديا -زوجته- في هذه الفكرة قبولاً حسناً، فلاشك أنهما بهذا اللقاء سيجدان الوسيلة التي تحل مشكلتهما، وبعي كلمات يحيى استبراء لما فعلا. أو تصحيحاً لما يجب أن يفعلا.

وذات يوم، وبينما كان يحيى عليه السلام يعمِّد الناس، ورذاذ الماء يتناثر حولهم، متقارباً أو متباعداً .. جاء أحد رجال هيرودس، واتجه إلى حيث يقف يحيى، وقال له:

– سيدي ..

كانت لهجة الرجل آمرة .. لم يراع فيها أنه يخاطب قديساً نبياً، وحبس الناس أنفاسهم، فقد أحسوا أن خطراً يوشك أن يقع بهم .. بينما عاد الرجل يقول:

– مولاي .. هيرودس يدعوك إلى قصره.

أعادت هذه الصورة إلى أذهان الواقفين على الشاطئ صوراً كثيرة، وعبثت بهم الظنون، واختلفت آراؤهم فيما إذا كان يحيى سيجيب هيرودس إلى طلبه أم يرفض الانصياع لمشيئته . لكن يحيى وهو رجل مصلح .. يرى أن يؤدِّى واجبه سواء فى كوخ الصغير أو قصر العظيم .. رأى أن يذهب إلى قصر هيردوس، لعله يستطيع أن يعيد إليه صوابه.

بينما كان يحيى عليه السلام يمضى مع رجال هيرودس .. كان الناس فيما بينهم يتذاكرون ذلك الحاكم الأدومى الذى ابْتُلِىَ به الشعب، وما اقترفه من آثام، ويدعون الله أن ينجِّى يحيى من شر يوشك أن يقع له.

(١٤)

كان هيرودس أنتيباس قد ملك بعد أبيه هيرودس الكبير ربع الجليل وحزءاً من بيريه .. عُرف بحبه للعظمة والتسلط . قضى معظم حياته في قصره بطبرية .. ذلك القصر الذى كان كقطعة من روما، كما عُرف عنه استهتاره وفساده ومجونه .. لا يتورع عن أن يفعل كل مشينة أو معصية في سبيل المحافظة على ملكه، وإشباع شهواته وغرائزه .. تزوج من ابنة أرتيماس أحد ملوك صيدا، فأساء إليها وأهانها، وكانت حياته معها أسوأ صور لحياة الزوجين، وذات يوم .. ذهب لزيارة أخيه فيليبس، والتقى بزوجته هيروديا، فأعجب بجمالها، وشغف بها حباً، وتبادل معها النظرات الوالهة .. كأنما وجد فيها ضالته، ووجدت هى فيه ما تنشده، فهما على شاكلة واحدة .. كلاهما يسعده الشر، ويهوى الرذيلة والإثم، وكلاهما للشيطان مكان فى قلبه، ولم يكتفيا بالنظرات المحرَّمة التى يستلهم كل منهما فيها عطش الآخر إليه .. بل تعدَّياها إلى اللقاءات المستترة، والتى أصبحت مجالاً للقصص التى نسجها حولهما رجال القصر وخدمه، ولابد أن رائحة الخيانة قد بلغت إلى فيليبس الزوج أو الأخ المخدوع فى زوجته وأخيه!!، فأدركا أنهما يطآن الشوك، وأن عليهما أن يلتمسا طريقاً يصلان بها إلى غايتهما دون أن تدمى أقدامهما، وأن يخططا للقاء أبدى يشبعان به رغبتهما الملهوفة، ويرويان ظمأهما العاطفى مهما كلفهما ذلك من ثمن، وزيَّن لهما الشيطان

ولأن فيليبس كان رجلاً ضعيف الشخصية، مغلوباً على أمره، فكانت الفرصة مواتية لهيرودس، ليجمع بين ملكه وملك أخيه، ومعه زوجته وابنتها الصغيرة سالومي؛ ولذلك جهز هيرودس جيشاً قوياً هاجم به مملكة أخيه، وانقض على قصره، وقبض عليه، وساقه أسيراً، حيث سجنه في قلعة ماكيرا السوداء، ولاشك أن الفضل في ذلك كان يرجع إلى هيروديا، وبينما كان فيليبس يعيش في سجنه في إحدى زوايا القلعة بجوار صهريج مياه قديم .. وحيداً إلا من قيوده الحديدية التي تشده إلى الأرض، وبعض الحراس الذين أدهشهم ما يعمله الأخ بأخيه .. كان هيرودس -بعد أن طلق زوجته- يعيش مع هيروديا كزوجين فيما بينهما، وإن باعدت بينهما أعين الرقباء .. يرويان ظمأ رغبتهما خفية!!

اثنا عشر عاماً مضت، وما يزال فيليبس في سجنه، والعاشقان يعيشان بالخطيئة .. بالإثم، ويمضيان معاً في طريق الشيطان .. حتى كانت ذات ليلة ..

اتجهت هيروديا إلى مخدع هيرودس كعادتها، فلحقت بها ابنتها سالومي، كأنما كانت تريد أن تشعرها بأنها تعرف ما بينها وبين عمها من خيانة، وحاولت سالومي أن تمنع أمها وما تفعل حتى تخرص ألسنة من بالقصر .. لكن هيروديا دفعت بابنتها بعيداً، وإن كان قد أخذها شيء من خوف، ثم توقفت قليلاً، وقد غمرها الضيق، ولكنها لا تملك إلا أن تكبت مشاعرها، فعادت إلى حجرتها، وما يزال الشيطان

يلحُّ عليها، ويوسوس لها ويغريها بالإثم، وقضت ليلتها مستلقية على فراشها .. نامت إحدى عينيها، وظلت الأخرى مستيقظة .. تفكر في أمرها، فلما كان الصبح من غد .. اندفعت إلى حجرة هيرودس، وما كادت تدخل عليه، وقبل أن تلتقط أنفاسها اللاهثة .. قالت له:

– وماذا بعد يا عزيزى؟! .. هل كُتِبَ علينا أن نعيش هكذا؟! .. أن نحتبس في صدورنا الرغبة .. لا نملك إلا أن نصرفها خلسة .. حتى كِدت أبغض هذا القصر الذى بدا على اتساعه ورحابته أضيق من ..

فقاطعها هيرودس:

– من سجن ماكيرا .. أليس كذلك؟!

أفاقت هيروديا، وإن لم تهدأ ثورتها، فقد عاد إلى ذهنها كثير من الذكريات والخواطر التي مرَّت بها .. لعلها تذكرت زوجها الذى ألجأه أخوه إلى إحدى زوايا السجن المظلم في القلعة الموحشة .. يئن من جراح القسوة والخيانة .. قسوة أخيه وخيانة زوجته .. أتراها أحست بالندم لما فعلته .. كم من آمال تعلقت بها وخيالات تتراءى لها أمام عينيها، فبدت كسراب، أو كقطرات من الندى سرعان ما أشرقت عليها شمس الحقيقة، فبعثرت ذرَّاتها!!

وأيقظها هيرودس من تفكيرها، وهو يقول:

– لا عليك يا عزيزتي ..

– كيف لا، وقد كبرت الطفلة الصغيرة .. سالومي، وغدت شابة تعرف من أمور الحياة ما تعرفه الفتيات .. لقد شاهدتني الليلة، وأنا قادمة إليك، فرأيت في عينيها الملامة، ولمحت في كلماتها الاستنكار .. كأنما هي تعرف كل ما بيننا، وكأنما هي تدرك حقيقة ما وقع لأبيها.

قال هيرودس في تودد:

– كم هي جميلة .. إنها ابنتك يا هيروديا .. فيها سحر عينيك الخضراوتين.

قالت هيروديا في استنكار:

– كأني بك تهواها .. أنسيت أنها ابنة أخيك؟!

كاد الحديث بين العاشقين يصبح عاصفاً .. لولا أن هيروديا جمعت شتات غضبها، وهمَّت بالانصراف، فتعلق هيرودس بها، وهو يقول:

– لا ياعزيزتي، فاستيقني من حبي لك، وغداً أؤكد لك أنني مازلت على العهد لك.

ما كاد العاشقان يفترقان كل إلى حجرته .. حتى أقبلت أستير إلى سيدها .. يعلو وجهها خليط من الانفعالات المرتسمة، وقالت لهيرودس:

– مولاي .. أرى آثار تفكير عميق يبدو على وجهك فهلا ..؟

فقاطعها هيرودس:

- فدعيني عنك، وما تريدين أن تقوليه ..

كانت أسير ذات الخمسين عاماً ؛ هي نفسها الفتاة التي عاشت في قصر هيرودس الكبير منذ ثلاثين عاماً مضت، والتي كانت لها المشورة حينما أقنعت هيرودس الكبير أن يقتل كل الأطفال الذين وُلدوا في بيت لحم وما حولها لعامين .. شاءت لها الأقدار أن تنتقل من معيّة هيرودس الكبير بعد موته إلى معية ابنه أنتيباس، وزادت مكانتها، وعلا شأنها في القصر، وامتدت حُظوتها إلى هيرودس، لما كان يستشعر في كلماتها المغلّفة بالنصيحة .. راحة لنفسه، وإذا كانت أستير فيما مضى فتاة جميلة في قصر هيرودس الكبير، فقد تقدّمت بها السنون، وغدت سيدة عركت شؤون الحياة .. عاشت السعادة، وقاست الكثير من ألوان الشقاء .. تسعد حيناً، وتكتئب أخرى .. فشلت في الزواج من هيرودس الكبير؛ فتزوجت أحد رجاله وطلقت، وتزوجت وترمّلت عدة مرات، مما كان لهذا أثر على نفسيتها وسلوكها، فبدت وقد اغتال الحزن مسحة جمالها، مما جعل الحقد يضغط على صدرها، ولأن أستير تعرف العلاقة بين هيرودس وهيروديا حتى في أدق تفاصيلها، فقد وجدت في هذا فرصة تنفث فيها سمومها وحقدها، مما كاد العاشقان يفترقان .. كل إلى حجرته .. حتى اتجهت إلى هيرودس، وقالت:

- لقد سمعت ما دار بينك وبين سيدتي من حديث ..

مجرد صدفة .. لا فضولاً، ولعلك تعلم ..

– وماذا بعد أيتها الماكرة؟!

– لكنى أشعر أنك فى أمس الحاجة إلى أستير . أليس كذلك؟!

ثم ضحكت ضحكتها المعهودة التى ألف هيرودس سماعها، وعادت تقول:

– لقد طال بكما الشوق، وبَعُدت بيكما الشُّقة بسبب أخيك فيليبس الذى يقف عقبة فى سبيل سعادتكما .. متمسكاً بالحياة رغم قيوده ..

وكأنما أيقظت هذه الكلمات هيرودس، ولمعت فى ذهنه فكرة .. ربما راودته من قبل .. لكن كلمات أستير جعلته يستيقن ألا مفر من تنفيذها، فصرف أستير، وأسرع إلى فراشه.

فلما أقبل المساء من غد .. استخفى هيرودس وراء شيطانه، واتخذ طريقه إلى سجن ماكيرا .. حيث كان أخوه يعانى الوحدة ويقاسى الألم، ثم دفع بالسكين إلى أحد الحراس ليقتله .. لم تمنعه توسلاته، ولم تؤثر فيه دماؤه التى أريقت أمام عينيه .. حتى إذا قضى الأمر، وتقطع ما بين أخيه والحياة من أنفاس .. أمسك هيرودس بالسكين وذبح الحارس، حتى يأمن عدم افتضاح سره، ثم عاد إلى هيروديا، وقال لها:

– انتهى كل شيء، يا عزيزتي!!

كانت بقايا الدماء، ما تزال تلطّخ يديه، وهو يقول:

– مات زوجك!!

– مات فيليبس؟! .. أخوك!!

– ذبحه أحد الحراس.

– انهار ذلك الجدار الذى كان يفصل بيننا.

ورغم فداحة الجريمة .. إلا أن العاشقين لم يشعرا بالإثم والذنب، بل وجدا فيما حدث فرصة للخطيئة .. كأنما يسعدهما أن يعيشا فى الدنس، ولم يجد هيرودس بداً إلا أن يعلن فى القصر عن موت أخيه، مدَّعياً أنه حاول الهرب، فصرعه أحد الحراس .. ربما صدَّقه بعض رجاله، ولكن كثيرين كانوا يعلمون الحقيقة .. أليس هو ابن هيرودس الكبير الذى كان له فى صفحات التاريخ الكثير من سطور القسوة .. وما يملك هؤلاء المصدِّقون وأولئك المكذِّبون إلا أن يمسكوا ألسنتهم، ويحتبسوا ما فى صدورهم من غل أو سعادة.

بهذا –بقتل فيليبس– وجد هيرودس الفرص مواتية، فأعلن زواجه من هيروديا زوجة أخيه!!

واختلف رجال القصر والدين فى أمر هذا الزواج .. باركه البعض .. هؤلاء الذين اعتادوا أن يدوروا فى فلك السادة، ورفض آخرون وهم قليلون، لأن هذا الزواج يخالف

شريعة موسى، واعتبروا العلاقة بين هيروديا وهيرودس استمراراً للعلاقة الآثمة، وبين هؤلاء وهؤلاء من استنكروا هذا الزواج، ولكنهم آثروا الصمت عن إبداء رأيهم .. خوفاً من بطش هيرودس ونقمة هيروديا، وكان لابد للفضيحة أن تخرج من حيز القصر إلى رجل الشارع .. تناقلها رجال القصر وخدمه في كلمات، وتحدَّث بها الناس في أحاديثهم .. كل يضيف إليها ما تصوره نفسه .. وسواء استشعر الزوجان العاشقان بما حولهما أم أستهما نشوة السعادة ما يقال عنهما، فقد بقي حديث الناس لا يتوقف.

وهكذا كان قصر هيرودس يموج بمختلف مظاهر الخلاف والخيانة .. حين بلغه يحيى عليه السلام في صحبة جنود هيرودس.

(١٥)

حينما بلغ يحيى عليه السلام إلى قصر هيرودس بصحبة تلاميذه وبعض الجنود .. التفت أحد الحراس إلى زميل له، وقال في همس:

- وهل يستطيع الظامئ أن يروى ظمأه من قطرات الندى؟!

قال الآخر:

- ماذا تعني بهذا يا زميلي العزيز؟

- لا شيء .. ولكن .. عما قليل ستنجلي الأمور.

- فهل تعني أن القديس يحيى لن يستطيع أن يعيد هيرودس إلى الصواب؟

- أو .. هل يستطيع هيرودس أن يصرف يحيى عن دعوته، ويضمّه إلى صفوفه؟!

كانت كلمات الحارسين اللذين يعرفان كثيراً مما يدور داخل القصر .. تعبيراً عما في نفسيهما، حين يلتقي رجلان على شاكلتين مختلفتين .. أحدهما حاكم مستبد خاضع لسيطرة امرأة متسلطة، والآخر قديس ملأ الرب قلبه بالحكمة والإيمان.

كان قصر هيرودس قد أقيم على مساحة واسعة .. اتخذه

في مكان ناء .. تحيط به أشجار كثيفة عالية .. كسياج حوله تمنعه .. في هذا القصر أعد هيرودس قاعة كبيرة للقاء يحيى .. مُدَّت فيها الأبسطة والوسائد، وإن خلت القاعة من الطعام والشراب، فلم يكن لهما مجال في مجلس يحيى، وتوسَّط هيرودس جانباً من القاعة . يحيط به كوكبة من رجاله وجنوده، وعلى مقربة منه جلست هيروديا وابنتها سالومي اللتين بدتا كجوهرتين كبيرتين جميلتين لكثرة ما يعلو رأسيهما وصدريهما من لآلئ وجواهر .. تحيط بهما كثيرات من سيدات القصر .. تتوسطهن أستير حضرن جميعاً بدفعهن الفضول والشوق لما سيقوله يحيى، وعبقت القاعة برائحة البخور المنبعثة من الخارج يخالطها عطر الحاضرات اللاتي جلسن في اهتمام وترقب .. كل واحدة يصوِّر لها خيالها ما تخشاه أو ما تتمناه، وجلس يحيى عليه السلام وبعض رجاله . بقامته المديدة ورأسه المرتفع .. تمتد نظراته إلى كل من يراه، ثم بدأ يلقي مواعظه .. يدعو الناس إلى التوبة والصوم والتقرب إلى الله .. نصائح ومواعظ عادية هي جزء من شريعة موسى التي أهملها كثير من القوم كان صوته هادئاً .. وادعاً .. وقد بدت السعادة على وجهه، مما دفع أحد الرجال أن يهمس إلى زميل له:

– يبدو أن يحيى حين دخل هنا قد ترك ثورته عند باب القصر جانباً ..!!

– لعلها بداية لعلاقة طيِّبة بين حاكم وقديس

– أما يدرى ما يعمله هيرودس، وما وقع لأخيه فيليبس، وما بين هيروديا وهيرودس؟!

ثم نظر إلى أستير، وهو يقول.

– وهذه المرأة الماكرة المخادعة التي لها في القصر مكانة وسلطة تتضاءل أمامها سلطة رئيس الجند!!

وتوقف الرجلان عن الحديث فيما بينهما، فقد خشيا أن يسمعهما أحد .. بينما كان يحيى ما يزال يلقى مواعظه، والحاضرون يستمعون إليه، وقد بدت السعادة على وجه هيرودس وهيروديا .. حتى همس أحد الرجال لمن يجاوره

- فليقل ما يشاء، فلم تعد الآذان تعي ما تسمع ..

– وإن وعت، فما هي إلا لحظات حتى نعود إلى ما كنا عليه.

انتقل يحيى بعد ذلك في موعظته إلى نصائح أخرى . نَبْذ المعاصي، والابتعاد عن الرذيلة والخيانة، وكانت كلماته هادئة .. لكن خواطر كثيرة بدأت تعبث بذهن هيروديا .. فلاشك أنه حينما يتحدث عن الخيانة إنما يعنيها، ولابد أنه كان يعلم أمرها مع هيرودس .. أليست شؤون القصر حكايات تروى .. يعرفها الكثيرون؟! أما سالومى .. فكانت تنظر إلى يحيى في إعجاب، وقد مسَّت كلماته شغاف قلبها، فأحست فيها استبراء لفكرها التي شوَّهته أمها بما ترتكبه وعمها من مفاسد . كم تمنَّت لو تحسست أمها

كلمات هذا القديس، لتدرك أى جريمة ارتكبتها فى حقّها وزوجها وابنتها وأمومتها، واختلطت مشاعر سالومى بين هذه الخواطر، وبين إحساس آخر، فقد غمرها شعور بحبٍّ يحيى . كأنما وجدت فيه الرجل الذى تنشده .. إنها فتاة تتطلع إلى فتى يسعدها وما تزال فى فورة الصبا والشباب .. كم تمنى كثير من كبار رجال القصر أن يحظوا بمودتها .. أن يجدوا لهم مكاناً فى قلبها، لكنها كانت لاهية عنهم بأحزانها ومأساتها على أبيها وخديعة أمها وقسوة عمها، أو لعلها لم تجد فى كل هؤلاء من يعيد الثقة إلى نفسها الجريحة .. لكنها اليوم وهى تستمع إلى كلمات يحيى تلفها سعادة غامرة . جعلتها تتمنى أن يكون هذا القديس فتاها الذى ينقذها من وحدتها، فكانت طوال الجلسة شاخصة ببصرها إليه، حتى كادت تفضحها نظراتها، وأيقظها من تفكيرها يحيى، وهو يقول:

– (ليس بالشر يعالج الشر، والخطأ لا يغفره خطأ آخر)

لم تكن سالومى هى الوحيدة التى سعدت بكلمات يحيى .. بل كثيرون غيرها . حتى تلك المرأة الماكرة أستير التى ملأ الانتقام قلبها أكثر من ثلاثين عاماً .. هى اليوم تشعر بسعادة حين تستمع إلى يحيى .. وتسترجع صور الأحداث السابقة التى عاشتها، وقد مضت السنون، وظهر يحيى يعظ الناس ويهديهم، كما كان عيسى يجوب أنحاء فلسطين .. يبشّر بدعوته إلى السلام والمحبة، وقد وهبه الله من المعجزات ما جعل الكثير من الناس يؤمنون بدعوته .. ترى هل كان يحيى أو

عيسى هو الطفل الذى يخشاه هيرودس الكبير، والذى من أجله ذبح آلاف الأطفال الأبرياء منذ ثلاثين عاماً؟!

فجأة التفت يحيى إلى هيرودس، وصرخ فى وجهه:

– (من أجل هذا .. لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك)

هنالك أسقط فى أيدى الحاضرين جميعاً .. حتى سالومى وأستير، وانتفض هيرودس، من مقعده، وقد هزَّته الكلمات، وصرخت هيروديا، وهى تشير إلى يحيى:

– مُرْ .. هذا الرجل .. فليسكت.

لكن يحيى بجرأته المعهود .. نظر إليها، وقال:

– (هذه هى التى وهبت نفسها للشيطان)

ثم التفت إلى هيرودس، وقال:

– (لقد ملأت الأرض بآثامك .. حتى صار قصرك أكثر نجاسة من قلبك)

وعلت الدهشة وجوه الحاضرين، ودوت فى القصر صيحات أو صرخات متناثرة .. متباينة .. هادئة أو ثائرة . بينما عاد يحيى يقول:

– (إننى أدعوك للمحاكمة أمام الرب، وفى ضوء كلماته المقدسة، وضميرك شاهد، لأنك تعلم علم اليقين .. أنه لا يحل لك زوجة أخيك).

ربما استنكر البعض أو استهجن ما قاله يحيى لكن

كثيرين كانت وجوههم تنطق بالفرحة لما قاله هذا القديس، لأنهم كانوا يدركون الحقيقة.

وحاول هيرودس أن يقول شيئاً .. لكن الكلمات تعثرت على شفتيه المتيبستين، وجف حلقه من شدة المفاجأة .. كان كرُبَّان قارب يسير في اتجاه الموج .. هبَّت عليه ريح عاصفة، لم يستطع أن يلمَّ شراعه في مواجهتها، وكُسِرَ مجدافه، وأعجزته قوته عن أن يتحكم في دفة قاربه!!

وبدا وجه هيروديا أكثر ما يكون صفرة .. رغم ما كان يغطِّيه من مساحيق، وخفضت رأسها المثقل بالجواهر، وهي ترى الحاضرين ينظرون إليها بنظرات كالسهام المسمومة، وكلمات يحيى تدق أذنيها، تمزِّق صدرها .. أتراها كانت صفرة الخوف والفضيحة .. أم صفرة الندم والخزي والعار؟!

وحاولت أن تنسحب من الجلسة، فلم تسعفها قدماها، ووقفت سالومي ابنتها حائرة بين أمرين، فهي حزينة من أجل أمها التي هُتِكَ سِتْرُها، وافتضح أمرها على مسمع من القوم، وهي سعيدة لما سمعته من كلمات يحيى التي كانت كمِبْضَع جراح .. يوجع المريض لِيُبْرِئه من علته، وتعالت صيحات بعض رجال هيرودس:

- مولاى .. مُرْ هذا الفتى، فليكف عن موعظته.

- ما جئنا هنا لنستمع إلى ما يسيء مولاى.

- ومتى كان للأقزام أن يغالبوا العماليق؟!

- فتى أفقدته خشونة الصحراء آداب الحديث لسادته .

- فادفعوا به إلى الصحراء ثانية، لتكون مثواه كما كانت مهده.

وحاولت بعض الحاضرات أن يطيّبن خاطر هيروديا بكلمات كُنَّ يبحثن لها عن حروف ومعان .. لكن فزعها كان أكبر من أن تستمع لكلماتهن، فمضت إلى مخدعها .. معتمدة على بعض منهن .. مُهدِّدة .. متوعِّدة يحيى ورجاله بالانتقام والبطش .. بينما مضى يحيى وتلاميذه مبتعدين عن القصر .. في انتظار ما تحمله لهم الأيام.

(١٦)

كانت ثورة هيروديا على يحيى أكبر من أن تتحملها وكثيراً ما طوّفت بذهنها مشاعر وأفكار شتى تُنبئها بمصير سيء لا فكاك ولا مناص منه، وأسهدتها الأحزان .. حتى إذا أصاب النوم جفنيها .. رأت كأنها تخوض في بحار من الدماء لا تملك لها دفعاً!! وغدا كأس سعادتها غير خالصة .. يمازجها الكدر، واغتال الحزن مسحة الجمال الذى كانت تبدو به في عيني هيرودس، وكثيراً ما أخضلّت عيناها بالدموع .. لا ندماً، ولكن خوفاً من مستقبل مظلم يحيق بها.

من أجل هذا .. ما زالت توغِر صدر هيرودس، وتوخز مشاعره بكلماتها، فما مضت غير أيام قليلة .. حتى بعث هيرودس ببعض رجاله، إلى حيث كان يقف يحيى يعمد الناس، فقبضوا عليه، وأوثقوه، وساقوه إلى قلعة ماكيرا .. حيث سجنوه في كهف مظلم هو أشبه بقبر مهجور

كانت قلعة ماكيرا أو البرج الأسود كما يسميه أفراد الشعب . تقع على الشاطئ الشرقى لبحر الميت، ترتفع على قمة جبل من الأحجار البركانية الحمراء والسوداء يحيط بها سور ضخم، أقيمت على زواياه أبراج مرتفعة وثكنات للجند، وامتدت خلف السور أشجار كثيفة تحميه من أى عدوان، وبداخل القلعة قصر فخم أقيم على أعمدة،

وغطيت جدرانه بالرخام، وكثيراً ما كان يسعد هيرودس وهو ينظر من شرفات قصره، فيرى البحر الميت ويجرى نهر الأردن وأورشليم وحبرون، وفى ناحية متباعدة من القصر .. كان يوجد صهريج مياه قديم .. بجواره كهف صخرى منحوت إلى أسفل .. حيث قُيِّد يحيى عليه السلام بسلاسل من حديد تمنعه من الحركة، وإن لم يستطيعوا أن يقيِّدوا لسانه، ويمنعوه من الكلام، فمازال يصرخ فى سجنه.

- (ويل للخطيئة، ولمن يقف إلى جوارها).

كم حزن يحيى وهو فى سجنه .. حُزْنُ طائر كان يحلِّق فى فضاء الله الواسع طليقاً سعيداً، لكن يد صياد خبيث امتدت إليه، محرمته من حريته وانطلاقه .. كم تمنى أن يعود إلى مكانه على نهر الأردن، ليعظ الناس، ولعله أدرك من خلال ما يعانيه أن حياة البرية بما فيها من وحوش وهوام وحشرات كانت أرحب وأحب إليه من هذا السجن المظلم الكئيب.

وكثيراً ما استعاد يحيى حياته السابقة فى البرية حين كان يفترش الأرض فى كهفه الصخرى .. يلتحف السماء .. لا تؤلمه لسعات برد الشتاء ولا تلهبه شظايا لهيب الظهيرة فى الصيف .. لكنه اليوم سجين .. بلا جريمة ارتكبها، ولأنه قال كلمة حق لله والدين!! .. كم تمنى يحيى وهو فى سجنه أن يرى الشمس بخيوطها الفضية فى الصباح، والذهبية حين تودع العالم فى مغربها .. أن يرى القمر وهو يشرق على

الكون، فيمسح بنوره تجاليد الظلام . أن يرى النجوم وهي تطل على الكون من فروج قميص الليل بعيونها الذهبية، فتمزّق بعضاً من أستاره الحالكة . كل ما كان يسعد يحيى وهو في سجنه . تلك الأخبار التي كانت تأتيه عن طريق بعض تلاميذه الذين استطاعوا أن يصلوا إليه، لينبئوه بأخبار المسيح عيسى ابن مريم، الذي كان يجوب أنحاء فلسطين، يدعو الناس إلى السلام والمحبة، وما يفعله من معجزات أجراها الله على يديه، فكان يشفي المرضى، فيبرأون من عللهم، ويبرئ الأكمة، فيسمع بأذنيه، ويترنم لسانه بالشكر لله .. يُخرج الأرواح الشريرة من الأجسام المعتلة حتى تلك المعجزة التي عُرِف بها .. حين أحيا بمشيئة الله ابنة يايرس بعد أن ماتت، فسعد بها أبوها وأمها .. كما استاء يحيى ذات يوم حين سمع أنباء تحدى قادة الدين للمسيح، لأنه تجرأ على شفاء إنسان يوم السبت .. محرراً بذلك هذا اليوم من القيود التي أحاطه بها اليهود، وأن يبين أن يوم السبت مثل غيره من أيام الأسبوع فيه الخير والرحمة والعمل، ربما تمنى يحيى أن يستطيع المسيح بمعجزة ما أن ينقذه من سجنه، ليشاركه رحلاته ودعوته، ولكنه تذكر أنه صوت صارخ ينبئ بمقدم المسيح الذى سينقّى الحنطة من التبن بمذراه .

ربما عادت إليه ذكريات جده يوسف بن يعقوب حين ألقى به أخوته ذات يوم في قاع الجُبِّ، وحين دفع به عزيز مصر إلى السجن تنفيذاً لمشيئة امرأته التي ألحقت به جريمة هو منها بريء .. حتى شاء الله أن ينقذه من سجنه، وتتضح براءته،

ويتبوأ على خزائن مصر وتعلو هامته .. أكثر من مرة زار هيرودس يحيى في سجنه .. ربما رافقته في بعض هذه المرات هيروديا .. محاولين استمالته وإقناعه بالموافقة على زواجهما، وأن يكفَّ عن معارضتهما حتى يفكا إساره، ويطلق لأموره .. لكن يحيى لم يكن بالشخص الذى يتنازل عن الحق أو ينكره، أو يتوارى خلف ضلال من أجل الحصول على حريته، فبقى في سجنه، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

(١٧)

عبق الهواء برائحة أزهار الأشجار الملتفّة كسياج حول قصر هيرودس، وكانت هيروديا تطلّع من إحدى شرفاته، وقد غامت على وجهها سحب الضيق من حجرات القصر التي ملّتها. فأحست في هواء الشرفة ما أنعش بعض نفسها، وأعاد إليها قليلاً من الراحة التي افتقدتها طويلاً، فاقترحت على هيرودس أن يغادرا حجرات القصر إلى حيث يهدآن في الخلاء والهواء الطلق، يتنسمان عطر الأزهار، وينعمان بالراحة علها تستعيد بعضاً من سعادتها، ووجد هيرودس في رغبة هيروديا فسحة يبتعد بها عن الفكر، فأمر بعض الخدم أن يحملوا إلى الخارج المقاعد والوسائد والمفارش اللازمة لجلسة هادئة في حديقة القصر.

كان القمر في تلك الليلة .. يطل على الكون من عليائه .. بدراً لم يكتمل، فألقى على المكان رداء فضياً جميلاً، مما ضاعف من سعادة هيرودس وهيروديا، وغمرتهما فرحة مجنّحة افتقداها منذ صرخات يحيى لهما في الجلسة السابقة، وزادت سعادتهما حين شاركتهما سالومي وبعض نساء القصر ممن لهن مكانة عند سيدتهن .. خصوصاً أستير.

وما كاد الجميع ينتظمون في جلستهم .. حتى نظر هيرودس إلى سالومي، وقد عبث الهواء بخصلات شعرها، وقال:

– ما أجملك الليلة يا عزيزتي .. كأن القمر يضفي على

فأشاحت سالومى عنه بوجهها، وهى تلملم خصلات شعرها .. بينما انتفضت هيروديا، وقد غلبها الضيق، وقالت:

– فهلا نسيت أيها الملك أنها ابنتى، وأن جمالها من جمالى؟!

– .... ؟!!

– وهل نسيت أيضاً أنها ابنة أخيك، فلا يحق لك أن تنظر إليها بنظراتك الثاقبة التى تعلن عن ولهك بها؟!

فافتعلت سالومى ابتسامة باهتة، وهى تقول:

– حقاً يا عمى العزيز؛ لقد أطريت جمالى، وأنت يا أمى الغالية . ما قلت غير الحقيقة، فهذا الجمال الذى أنعم به هو جزء منك.

ثم سكتت قليلاً، ونظرت إلى عمها بنظرة فيها كثير من المعانى، وهى تقول:

– ومن أبى فيليبس أيضاً .. أليس كذلك يا عماه؟!

ثم أشارت إلى جهة قريبة، وقالت:

– ذلك الذى كان سجيناً هنا على مقربة منا . حتى ليخيل إلى أن روحه ترفرف حولنا .. تشاركنا هذه الجلسة!!

عند ذلك .. أسقط فى يد هيرودس وهيروديا، فقد أدركا مقدار ما تشعر به سالومى من مرارة أحمطتها على عمها وأمها مما وقع لأبيها، وما تملك هيروديا إلا أن تقول:

– فدعينا من أبيك يا عزيزتي، وتطلعي إلى مستقبل أكثر إشراقاً .. تنعمين به مع من تختارينه زوجاً لك.

– وهل أنسى أبي يا أماه؟!

– كان ضعفه سبباً في هزيمته

– هزيمته من أخيه؟!

قال هيرودس في غلظة:

– فدعينا ياعزيزتي من كل هذا، واملئي صدرك بهذا الهواء المنعش وتلك الرائحة الذكية وضوء القمر الذي يسكبه على الكون، فيذكي في النفوس البهجة والأماني

ما كاد هيرودس ينتهي من كلماته .. حتى جاءهم صوت يقول:

– (إن ما تنبأت به قد آن أن يقع . عما قريب سيصبح لون القمر كالدم .. وستتساقط النجوم كالتين الناضج)

كان هذا الصوت هو صوت يحيى عليه السلام، وهو في سجنه.

ووجمت هيروديا مما تسمعه من كلمات، فقد أدركت أن صوت يحيى أعلى من أن تمنعه قيوده وأغلاله وظلام سجنه، ولكن هيرودس قال:

– كلمات غامضة لا تبين عن معنى . كأن هذا الرجل يهذي بهاء؛ لما يعانيه من آلام السجن وقيوده، وإحساسه

بالضعف.

مرة ثانية .. جاءهم صوت يحيى صارخاً من سجنه:

– (يا ابنة بابل .. الخطيئة لا تمحوها خطيئة . أما آن للعصاة الذين استكثروا من الخطايا أن يتخذوا طريقهم إلى الرب، ويبتعدوا عن الشيطان؟! لقد جاء المسيح واختفت الشياطين).

قالت هيروديا لهيرودس، وقد لسعتها كلمات يحيى.

– أما تسمع ما يقوله هذا السجين؟!

– دعيه يهذى بكلماته، لعله يجد فيها متنفساً لما يعانيه من قيوده وظلام سجنه.

– ولكنه يعنيني بكلماته.

– فمن يسمعه؟! جدران السجن تحيط به، ولا تجد كلماته صدى في الهواء حوله، وما يسمعه إلا حارسه.

عند ذلك ابتسمت سالومى فى سعادة وقالت.

– ولكنه يقول الحقيقة.

فنهرتها أمها، وقالت:

– وأين الحقيقة فيما يقوله؟!

.. إنه يدعو إلى التوبة .. إنه رجل طيب قديس . يحبه الناس.

كانت كلمات سالومى لأمها كخنجر أدمى جراحها،

فما تملك إلا أن تطأطئ رأسها .. تنظر إلى الأرض كمن تبحث عن شيء فُقِدَ منها، وقد تاهت بها الأوهام حتى أيقظها صوت هيرودس يقول:

– هاهو ذا (بنيامين) صديقي العزيز .. قد أقبل نحونا.

كان بنيامين أحد الرجال المقرَّبين إلى هيرودس قد أقبل نحوهم ليشاركهم جلستهم، فما كاد يقترب منهم .. حتى قال:

– ما أجمل الليلة يا مولاى .. ضوء القمر، وأريج الزهر، والنسمات المعطرة، والهدوء الذى يسعد الخواطر، ويريح النفوس!!

ما كاد بنيامين ينتهي من كلماته، حتى جاءهم صوت يحيى:

– (أما إن للمخطئين أن يتوبوا عن معاصيهم، ويعودوا إلى ربهم)؟!

قالت هيروديا فى حدة:

– أما تسمع ما يقوله هذا السجين؟ أما آن له أن يكفَّ عن صرخاته؟! ..

ثم التفتت إلى بنيامين، وقالت له:

– خير لنا أن نلقى بهذا السجين إلى اليهود، ليقتلوه، فلا يملك أنصاره أن يثأروا له.

قال بنيامين ليطيِّب خاطر هيروديا:

– لن تصل صرخاته وهو فى سجنه إلا إلى ما يحيط به من

جدران .. لكن ..

وأسرع هيرودس يقول:

- لكن ماذا يا عزيزي بنيامين؟!

وأخذت الدهشة هيروديا .. بينما استطرد بنيامين يقول:

- لكن ما يثير القلق حقاً هو ذلك الناصري عيسى ابن مريم الذي يجوب أنحاء فلسطين ما بين الناصرة وأورشليم.

وبينما انخرط الثلاثة: هيرودس وهيروديا وبنيامين في حديث عن المسيح عيسى، وما يفعله من معجزات من إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص، وما فعله في هيكل الرب في أورشليم وتطهيره من الدنس، قالت سالومي:

- وماذا يعنيني من هذا كله .. إنه أمر لا يهمني، ولابد أن أبتعد، حتى لا أشارككم حديثاً لا صلة لي به.

كانت كلمات سالومي وسيلة كي تبتعد عن أمها وعمها لحاجة في نفسها، فكثيراً ما تمنَّت أن تلتقي بيحيى وجهاً لوجه .. تحادثه .. كأنها وجدت فيه خلاصاً لكل ما يحيط بها من أغلال الحزن والضيق التي تحاصرها، حتى لتكاد تخنقها، فهل تجد عند يحيى ما يخلِّصها من وهدة الضلال، وهل تجد عنده شيئاً آخر ينشده قلبها؟!

كان يحيى قد أعجبها كرجل حر، لم تجد جرأته في غيره من الرجال الذين عرفتهم، والذين يحاولون التقرب إليها، ويتبارون في رضاها، فهل تجد عند يحيى ما تنشده؟!.

وابتعدت سالومي إلى حيث كان يحيى في سجنه، وقد رادت مشاعرها وإن اضطربت .. كان يحدوها أمل ويدفعها الرجاء، وإن تقاذفتها المخاوف، حتى إذا اقتربت من سجن يحيى، أقبل عليها حارسه، وقد أدهشه مقدمها، فأسرعت تقول له:

– أريد أن أرى السجين يحيى .. هذا القديس.

لكن الحارس وسط دهشته وخوفه .. قال لها:

– لا .. لا يا سيدتي الأميرة.

قدمت سالومي في يد الحارس قطعة من الذهب انترعتها من صدرها، وهي تقول في نبرة قاطعة:

– لن يطول بقائي ..

– لكن مولاي هيرودس يمنع زيارة هذا السجين .. حرَّم هذا على الكاهن الأعظم.

– فأنا .. الأميرة سالومي أقرب الناس إلى قلب عمي، وإذا كان عمي يخشاه، فأنا لا أخاف من هذا القديس.

واقتربت سالومي من باب سجن يحيى، فسمعته يقول:

– (لا يحق للناس أن يقلّدوا الخاطئين في خطئهم).

قال الحارس، وقد غلبه الأمر، وتوقف كالمأخوذ:

– أما تسمعين صوته .. كلماته يا أميرتي العزيزة؟! إننا لا نفهم ما يقوله:

قالت سالومي:

أفهم ما يعنيه بكلماته، ولهذا أريد لقاءه .. أراه . أتحدث إليه .. أرى وجهه المضيء.

ثم انتزعت قطعة ذهبية من معصمها، وأعطتها للحارس، وهي تقول:

لن يعرف عمي الملك بهذه الزيارة . لعلي أعيد إلى هذا القديس صوابه، فيكفّ عن صراخه.

كان حارس آخر يقف على مقربة منهما، ولاحظ تلك القطعة الذهبية التي أعطتها سالومي لزميله، فاقترب منهما، وأخذ يشجع زميله على السماح للأميرة بتحقيق رغبتها في لقاء القديس .. قال الحارس في شيء من التردد:

– لكني أخشى على الأميرة من أذى الرجل، ومن الأفضل لها أن تعود.

ثم التفت إلى سالومي، وقال لها:

– لن تسلمي من خشونة كلماته، والخير لك أن تبتعدى يا أميرتي العالية.

قال الحارس الآخر لزميله.

– إن القديس رجل طيب لا يؤذي أحداً يقولون إنه النبي إيليا، فدع الأميرة تلقاه تتحدث إليه

ما كادت سالومي تقترب من باب السجن . حتى سمعت

صوت يحيى ينادى:

– (ليتها تعود إلى رشدها تهجر فراش الخطيئة والدنس .. تتخلص من آثامها).

ومرت بخاطر سالومى ذكريات وأحداث كثيرة عاشتها، فقد أدركت من كلمات يحيى أنه يعنى أمها وعمها، و لم ينقذها من تفكيرها إلا صوت الحارس يقول لها:

– فابتعدى يا سيدتى، فهذا خير لنا ولك.

كانت سالومى مُصِرَّة على أن تقابل يحيى، فتخلصت من قبضة يد الحارس، واقتربت أكثر من سجن يحيى، فرأته، وقد انخرط فى صلاته، فملأ بنور وجهه كل ما حوله . حتى إذا انتهى من صلاته .. أقبلت إليه سالومى .. بينما قال أحد الحراس:

– كم هو نحيل ذلك القديس . وعيناه محيفتان

لكن سالومى اندفعت إلى يحيى، وراحت تتطلع إليه فى سعادة بالغة، فالتفت يحيى إلى من حوله، وقال:

– (من هذه المرأة التى تقتحم علىَّ صلاتى؟!)

فأسرعت سالومى تقول:

– أنا سالومى ابنة فيليبس.

– (كُفِّى ببصرك يا ابنة الخاطئة . عودى إلى أمك التى أثمت فى حقك وحقها وحق أبيك، واطلبى منها أن تهجر

فراش الخطيئة،وتتوب عن ذنوبها).

قالت سالومي في استجداء:

– وماذا أفعل أنا أيها القديس؟

– (دعي عن نفسك الآثام .. ابتعدي عن الدنس الذى لوثتك به أمك، واهربي من هذا القصر).

– إلى أين؟!

– (إلى الصحراء .. إلى حيث الطهارة .. أو فابحثي عن المسيح عيسى، ليأخذ بيدك إلى طريق الهداية).

وازدادت سالومي اقتراباً من يحيى، وكان قد حاول العودة إلى صلاته، ولكنها حاولت أن تجذبه إليها، وتقبّل يديه، وهي تقول:

– لكني أسعد بكلماتك .. حتى حينما تتكلم عن أمي بما يشينها.

– (فارجعي إلى أمك التي مضت في طريق الشر، وسليها أن تعود إلى الحق، وعودي إلى عمك لعله يدرك خطأ ما يفعله، ولينتزعا عنهما لباس الهوى والضلال).

لكن سالومي راحت تنظر إلى يحيى بعينين فاحصتين، وهي تحاول أن تقترب منه، وقد غمرها شعور جديد على قلبها، وهي تقول:

– رغم قسوتك على أمي، فإني أشعر بالسعادة إلى

حوارك .. كم أتمنى أن ألمسك!!

- (لا تلمسيني أيتها المرأة . عودى إلى أمك و .)

فجثت سالومى على ركبتيها، تستعطف يحيى .. ترجوه أن تلمسه .. حتى تكاد تقبل يديه.

كم دهش الحارسان لما يريانه .. سالومى ابنة الملكة والملك تستعطف هذا السجين .. تجثو عند قدميه .. تسترحمه، ولكنه يرفض استعطافها وحبها!! بينما كان يحيى يقول.

- (فابتعدى، واذهبى إلى أمك، وأدعيها إلى التوبة، وأن تهجر فراش الخطيئة).

لكنى قبل أن أفعل ذلك أتمنى أن أقبلك!!

ثم نهضت سالومى، وحاولت أن تقبل يحيى، ولكنه ابتعد عنها، وهو يقول:

(ابتعدى يا ابنة الآثمة).

- فدعنى أقبلك، كم أشعر برغبة فى هذا

- (إنه شيطانك يدفعك إلى الخطيئة).

- أرجوك، دعنى أقبلك، وأعاهدك أن أكون لك عوناً عند عمى ليخرجك من سجنك . فهل أجد سبيلاً إلى قلبك؟!

- .... !!

- ولتعيش حراً، ولأكون لك وحدك تقاسم الحياة معاً

- (لا يحق لك أن تنظرى إلىّ .. ابتعدى عنى أيتها الآثمة).

- أرجوك .. إننى معجبة بك، فدعنى أقبلك . إنى أتوسل إليك، فهل تقبل حبى لك؟

- (ابتعدى عنى أيتها الآثمة).

- لكنى أحبك، قلبى معلق بك.

(لكن قلبى متعلق بالله .. ربى، فعودى إلى رشدك، وامسحى عن عينيك غشاوة الخطيئة التى توشكين أن تقعى فيها).

ابتعد يحيى يجر قيوده إلى ركن سجنه بين دهشة الحراس وخوفهم مما قد يحدث، فما تملك سالومى إلا أن تنسحب هى الأخرى، وقد غلبها شيء من بكاء، وإن تحجَّرت فى مقلتيها الدموع . فلم يكتف يحيى بإهانة أمها .. بل أوْصَد أمامها طريق الحب .. لقد عرضت نفسها عليه، وهى التى كثيراً ما جثا كبار رجال القصر عند قدميها؛ طمعاً فى نظرة رضى منها!!

ألا ما أعجب أمر هذا الرجل! كم يحيرها الفكر ويضنيها الحزن ويثقل الهم نفسها . حتى إذا عادت إلى القصر . ألقت بنفسها فى أحضان أمها، وقد خانتها دموعها فبكت، وهى تحكى لها ما كان من أمرها مع السجين يحيى، فضاعفت أمها من شعورها بالحقد على يحيى، وكان لشيطانيهما خطة سيطرت على عقليهما

(١٨)

امتلأ قصر هيرودس بعلية القوم من قادة الجيش ووجهاء الشعب والكثيرين من الضيوف الذين توافدوا من أنحاء متفرقة إلى القصر، فالليلة هي ليلة عيد ميلاد حاكمهم، ومن أجل هذا .. جاء كل هؤلاء، ليهنئوه، وليعلنوا ولاءهم، وليعبِّروا عن فرحتهم، ويسعدوا .. ممنين أنفسهم بليلة من تلك الليالى التى ألفوها فى رحاب سيدهم.

وجلس هيرودس، وقد ملأه الزهو، وعلا وجهه التيه والصلف، وثقل تاجه الكبير على رأسه، والابتسامة لا تفارق شفتيه الغليظتين، تلك الابتسامة التى تكبر، كلما أقبل قادم جديد، يعلن له عن ولائه وحبه.

فما مضت ساعة أو بعض الساعة .. حتى مُدَّت موائد الطعام هنا وهناك .. ممتلئة بأفخر الأطعمة، فأقبل الجميع يلتهمون طعامهم فى شراهة ونَهَم، وكلمات الاستحسان ترتفع حيناً، وكلمات الدعاء لهيرود س تعلو أحايين كثيرة

حتى إذا انتهى الرجال من طعامهم .. جاء وقت الشراب، وأقبلت الساقيات .. يملأن كؤوس الرجال، وهم يتقارعونها، يعلنون عن فرحتهم، وعلى ضوء الشموع التى ما تكاد تنتهى ذبالة إحداها .. حتى يعاودها الخدم بغيرها، وهيرود س ينظر إلى كل من حوله فى سعادة .. وأقبلت راقصات الجمل . حسان .. يسبقهن عطرهن .. تعز

لغورهن عن ابتسامات مشرقة .. رشيقات القد .. عاريات أو شبه عاريات .. لا تكاد تستر أجسادهن إلا تلك الغلالات الرقيقة التى أضْفَت عليهن أنوثة وسحراً، وهن يسعين إلى مجلس الرجال سعى النسيم فى رقته . يتهادين حينما، فيأخذن بألباب الرجال الذين كانوا يتطلعون إليهن فى شراهة، وقد أسكرتهم حركاتهن، وبهرتهم رقصاتهن، فأيقظن فى نفوسهم أحاسيس الغريزة، وتعالت دقات الدفوف والمزامير، وأقبلت الشاديات .. يضوِّع النسيم عطرهن .. وهن يغنين أعذب ألحانهن مختلطة بكلمات الاستحسان، وهبَّت نسمات الليل رقيقة تعبث بذبالات الشموع، فما استطاعت أن توقظ الرجال من نشوتهم

فبينما القوم فى مجلسهم، وقد لعبت الخمر بعقولهم، حتى كادت تثقل رؤوسهم .. أقبلت سالومى وأمها هيروديا كانت سالومى تتهادى فى مشيتها فى خطوات قصار .. تعلن عن فتنتها وأنوثتها، ويشعّ من عينيها الدعجاوتين العميقتين السحر والجرأة، ولاشك أن بعض الحاضرين حين رأوا سالومى وأمها قد استعادوا تلك الجلسة العاصفة التى فصح فيها القديس يحيى سرَّ هيرودس وهيروديا والتى من أجلها أُودِعَ السجن .. لكن هؤلاء أبعدوا هذه الذكريات عن أفكارهم، حتى لا يفسدوا ليلة ميلاد سيدهم.

أقبلت سالومى إلى عمها، وجلست إلى جواره، ومسحت على خدِّه فى رفق، فانتشى بجمالها وشذى عطرها حتى

كاد ينسى أنها ابنة أخيه، وأحست سالومى بسعادة عمها، فقامت، ومدت ذراعيها العارتين فى حركة راقصة بارعة . كشفت عن بعض مفاتن جسدها، فألهبت عيون الرجال المتقدة الشاخصة إليها، وتمايلت وانثنت فى خفة ودلال، فعلت أصوات الرجال استحساناً، والتهبت أكفهم بالتصفيق إعجاباً بجمالها ورقصها .. لكن سالومى توقفت، وهمت بالخروج من القاعة، فاستوقفها هيرودس استجابة لرغبات رجاله، وأمسك بيدها وهو يقول:

– لا .. يا سالومى، فما يزال فى الليل ساعات طويلة.

وحاولت سالومى أن تبتعد، وهى تنظر إلى أمها .. لكن عمها مسح على شعرها فى حنان وهو يقول:

– ما أجملك الليلة يا سالومى، بحق عمك الذى تحبينه . أعيدى رقصتك الجميلة.

ونظر هيرودس إلى من حوله، وقال:

– هؤلاء رجالى .. يرجونك أن تعاودى رقصتك المبدعة

قالت سالومى فى تيه:

– ذلك ما يحلو لى يا عماه .. ولكن ..

– ولكن ماذا يا عزيزتى الجميلة؟ .. أهناك ما يمنعك من تحقيق رغبة عمك؟!

ونظرت سالومى إلى أمها هيروديا، وكأنها تستلهم منها جواباً لسؤال عمها، ثم قالت:

- لا شيء يا عماه.

- فلماذا لا تحقّقين للرجال رجاءهم، ارقصي يا سالومي، فقد بهرتنا رقصتك.

كانت هيروديا .. قد أعدت ابنتها في تلك الليلة إعداداً جمالياً وذهنياً، وملأت رأسها بفكرة من تلك الأفكار المسمومة التي يُوحي بها إليها شيطانها . عطّرتها، وألبستها بضع غلالات حمراء رقيقة تُبين عن مفاتن جسدها، واتفقتا معاً على خطة محكمة لكي تصلا إلى مآربهما، فما كادت تحظى سالومي بإعجاب عمها ورجاله .. حتى بدأت في تنفيذ باقي خطتها.

وبينما كانت سالومي شاخصة ببصرها إلى أمها . عاد هيرودس يقول.

- ارقصي يا سالومي . حققي لعمك رغبته

لكن هيروديا قالت لابنتها في حزم:

- لا ترقصي يا سالومي.

قال هيرودس في نبرة استجداء

- ارقصي يا سالومي . أرجوك .. الرجال معجبون برقصتك، فأسعديهم.

ثم سكت قليلاً، وعاد يقول.

- فإن فعلت .. فلك أن تتمنّي ما تشائين .. أحققه لك.

قالت سالومي، وقد بدا على وجهها مقدمات الرضى:

– مهما كانت أمنيتي .. تحققها لي؟

– حتى ولو طلبت نصف مملكتي.

– لكني لا أريد نصف مملكتك.

– فأي شيء تطلبين .. أحققه لك.

لكن هيروديا .. أسرعت تقول:

– لا . لا يا سالومي .. لا ترقصي، لأن عمك يعطيك عهداً .. قد لا يستطيع تحقيقه.

قال هيرودس بكل ثقة وتحد.

- أقسم على ذلك أمام الحاضرين من رجالي

ثم نهض مسرعاً، وقال.

– أيها الرجال والقادة والضيوف . لقد أقسمت أن أحقق للعزيزة سالومي أي مطلب تريده . بعد أن تمتعنا برقصتها الجميلة، وكلكم شهود على هذا.

ومع صيحات الرجال وسعادتهم، وإعلان فرحتهم بكلمات الملك .. قالت سالومي

– سأرقص لك يا عماه .

وقال هيرودس وقد أسعدته كلمات سالومي:

– ولك ما تشائين .. نصف مملكتي .. تاجي جواهري .. لقد أقسمت على ذلك، والملوك لا ينقضون عهودهم ..

ارقصي يا سالومي.

عند ذلك . خلعت سالومي حذاءها، وأحد أثوابها الرقيقة التي كانت أمها قد أعدتها لتلك الليلة، وبدأت رقصتها، كزهرة جميلة .. في رشاقة وسرعة، وهيرودس ورجاله يسكرون من نشوة رقصتها .. ويطلبون المزيد، وبين حين وآخر . كانت سالومي تخلع إحدى غلالاتها الرقيقة، وتعاود رقصاتها، لتبدو أكثر فتنة وجمالاً .. حتى خلعت معظم غلالاتها .. إلا واحدة، تشف عن مفاتن جسدها، وتبهر الرجال، وكأنها تبعث فيهم نشوة الغريزة .. حتى ذلك الرجل جانبها الكاهن الذي بدا صامتاً، كأنما يستشعر خطراً يوشك أن يقع، وتلك المرأة أستير التي كانت تدرك أن وراء هذا كله خديعة دبَّرتها هيروديا وابنتها . فإذا انتهت سالومي من رقصاتها . جلست إلى جوار عمها، وقد شخصت ببصرها إلى أمها، وقالت

- عماه .. لقد حققت لك وللرجال رغبتكم، فهل تحقق لي مطلبي، ما عاهدتني عليه؟!

- لك ما تشائين يا عزيزتي .. نصف مملكتي؟! تاجي؟! جواهري .. ذهبي؟! .. اطلبي ما شئت.

فنظرت سالومي إلى أمها، وقالت لعمها

- أطلب طبقاً من ذهب.

ضحك هيرودس، وهو يقول:

– طبق من ذهب .. هذا قليل مما تستحقين يا عزيزتي

وعادت إلى ذهن سالومي صورتها، وهي تقف ذليلة عند قدمي يحيى في سجنه .. تستجديه حبه .. لكنه نأى عنها، ورفض أن يبادلها مشاعرها، لأن قلبه معلق بالله، فأهان كرامتها بكلماته، وداس مشاعرها .. ورفض الخضوع لمشيئتها، وهي ابنة الجاه والسلطان، مما ضاعف حقدها عليه .. صورة لا تنساها سالومي، فأسرعت تقول:

– نعم .. طبق من ذهب

وسكتت قليلاً، ثم نظرت إلى أمها، وقالت

– فيه . رأس يحيى!!

وقبل أن ينطق هيرودس بكلمة، أسرعت سالومي تقول:

– إنه عهد قطعته على نفسك يا عماه . أن تحقق لي ما أطلب .. رأس يحيى في طبق من ذهب.

كانت مفاجأة ألجمت هيرودس ومَنْ حوله .. بينما عادت سالومي في إصرار تقول:

– والملوك لا يتراجعون عن عهودهم أم تريد أن يقول عنك رجالك .. إنك تتنصَّل من عهودك.

قال هيرودس في نبرة ممزوجة بالشك والدهشة!

– لاشك أنك تمزحين يا عزيزتي.

– بل جادة كل الجد .. إنني أطلب رأس يحيى في

طبق من ذهب.

- فماذا يعيدك رأس قديس ملطّخة بالدماء حتى ولو كانت في طبق من الذهب؟!

وابتسمت هيروديا ابتسامتها المعهودة . تلك الابتسامة الباهتة الصفراء، وأحست أنها أوقعت هيرودس في حيرة من أمره .. وتبادلت مع ابنتها النظرات، كمن تشجعها على طلبها.

واصفر وجه هيرودس، وفقد توازنه بعد أن تأكد أنه وقع ضحية لمؤامرة دبرتها هيروديا وابنتها، وما يدري إلا وهو يتشبّث بوسادته في عصبية ظاهرة .. فَضَحَت ما كان يعانيه من قلق وخوف، حتى كاد يتدلّل لسالومي أن تتنازل عن طلبها، وأحس أنه وقع ضحية لشيطانتين دبّرتا له المؤامرة بإحكام، ونسجتا خيوطها بدقة، وما يستطيع إلا أن يتوجه إلى سالومي في استعطاف، وهو يقول.

- يا عزيزتي الجميلة . سليمي ما شئت غير الذي .

فقاطعته سالومي:

- لا مطلب لي إلا رأس يحيى .. في طبق من ذهب.

- كأنك بهذا تستمعين إلى صوت أمك!!

- لكنك أقسمت، وعليك أن تبرّ بقسمك

- أما يكفيك نصف مملكتي؟!

- ولا كل مملكتك.

– وجواهرى وقلائدى ..؟!

– رأس يحيى عندى أكبر من كل هذا

– وكيف أذبح قديساً يحترمه الناس ويتعاطفون معه؟!

– لكنك أقسمت أن تحقق لى مطلبى، وهذا هو الذى أطلبه .. رأس يحيى فى طبق من الذهب.

وما يملك هيرودس، وهو فى موقفه إلا أن يفرغ فى جوفه كأساً من خمر كانت فى يده، ويقول:

– والملوك لا يتراجعون عن عهودهم.

كان كثير من الحاضرين ما يزالون فى نشوتهم من كثرة ما تجرعوه من شراب، وما شاهدوه من رقصات، فلم يعبأوا بما كان يدور بين سالومى وسيدهم .. حتى أن بعضهم انصرف دون أن يدرى بما حدث .. لكن بعضاً من المقربين إلى هيرودس أحسوا بمقدار ما يحيق به من خطر، وإن اختلفوا فى أمره، فمنهم من وجد فيما تطلبه سالومى فرصة للخلاص من يحيى وصراحته، ومنهم من أحس بهول الجريمة، وفى خضم كل هذه الأفكار جاءهم صوت هيرودس:

– لك ما تشائين يا عزيزتى سالومى .. فليذبح يحيى، وليحضر الحارس رأسه.

وقالت سالومى وأمها:

– فى طبق من ذهب.

(١٩)

انتصف الليل أو يزيد، وانصرف بعض تلاميذ يحيى الذين كانوا يلتقون به فى سجنه أحياناً .. خلسة .. بعيداً عن أعين رقباء هيرودس، لينبئوه بأخبار المسيح عيسى عليه السلام، وما يفعله من معجزات، والذى يؤكد أن يحيى كان هو الصوت الصارخ الذى يبشّر بمجىء المسيح لينقذ الناس، ولعلهم فى جلستهم -يحيى وتلاميذه- كانوا يتطلعون إلى معجزة يستطيع بها المسيح عيسى أن يخلّص يحيى من سجنه وقيوده، ولابد أن هؤلاء قد سمعوا فى تلك الليلة أصوات ضوضاء وصياح الرجال وهم يحتفلون بعيد ميلاد سيدهم .. حتى إذا انصرف التلاميذ .. رقد يحيى ينظر إلى قيوده التى تشده إلى أرض سجنه!!. ووثبت إلى ذهنه كثير من الذكريات التى عاشها فى البرية وحيداً، وعند نهر الأردن يعمّد الناس، ثم ما حدث مع هيرودس وهيروديا.

فجأة .. شعر يحيى بوقع أقدام تقترب من سجنه، فحسبها لأحد تلاميذه قد عاد إليه لأمر ما .. أو أن أحد الحراس قد استيقظ من نومه، فما مضت لحظات .. حتى سمع صوتاً آخر غريباً .. لم تألفه أذناه من قبل .. كان صوتاً خشناً غليظاً .. ينطق بجفوة وقسوة، وهو يقول:

- هذه رسالة مولاى هيرودس إليك، وعليها خاتمه .. انظر إليها على ضوء تلك الشمعة التى بيدى.

فما مضت بضع لحظات .. حتى سمع يحيى صوت الحارس يقول لمن معه:

- لكن القديس رجل طيب.

- هى مشيئة سيدى هيرودس، تحقيقاً لرغبة الأميرة سالومى

وتذكر الحارس ما كان من أمر سالومى ذات ليلة. حين جاءت إلى يحيى، وقد ملأها فوران الشباب .. ترجوه أن تلمس جسده .. تقبِّله .. تستجدى حبه .. تمنيه بخلاصه من السجن .. لكن يحيى نأى عنها .. رفض مقايضة رغبتها المحمومة .. ليلتها ابتعدت سالومى حزينة بائسة . قد اغتال الحزن جمال وجهها، واخضلت عيناها بالدموع، وانطفأت تلك الابتسامة التى كانت تعلو وجهها عند مقدمها .. ليلتها شعر الحارس أن سالومى تئن أنين الوَجْد الذى خمد فى قلبها!!

وعاد الحارس يقول لمن معه، وقد ازدادت خطوات القادمين قُرباً من السجن:

- لكن القديس يحيى لم يسئ إلى الأميرة سالومى بشيء.

وما يمضى غير قليل .. حتى فتح الحارس باب السجن، فإذا يحيى أمام رجل ضخم الجسم .. أوسعت القسوة قلبه بقدر ما اتسع جسمه .. تلمع فى عينيه آيات الشر، وقد تمنطق بسيف، فأدرك يحيى أن الرجل أحد جنود هيرودس .. لعله جاء يطلبه لمقابلته .. لكنه لاحظ من مظهره وملامح وجهه خلال ذبالة الشمعة التى يحملها الحارس أن الأمر

أخطر من هذا .. بينما أسرع الجندى يقول:

– هذه مشيئة مولاتى الأميرة سالومى.

كاد الحارس يعاود كلماته السابقة بأن القديس رجل طيب لم يفعل ما يغضب الأميرة الصغيرة .. لكن الجندى – فى حركة سريعة– انتزع سلاحه من غمده، ثم هوى به على رقبة يحيى، ففصل رأسه، وهوى جسده على الأرض وسط بركة من الدماء .. فاضت، واتسع مداها إلى خارج أرض السجن!!

ثم أسرع الجندى وسط دموع الحارس، فأخذ رأس يحيى وناوله إلى جندى آخر كان معه، وهو يقول:

– فضعها فى الطبق الذهبى، واذهب بها إلى مولاى هيرودس.

كانت الدهشة قد علت وجه الحارس .. وما يستطيع إلا أن يهذى بكلمات .. إن القديس رجل طيب لم يؤذ أحداً .. بينما كان الجندى يردد، وقد ملأه الخوف:

– هذه مشيئة مولاى .. لقد وعد الأميرة سالومى برأس يحيى فى طبق من ذهب.

انصرف الجندى وصاحبه برأس يحيى الذى تتساقط منه الدماء، ليسرعا إلى هيرودس ومن معه، حيث كانت سالومى وهيروديا تنتظران فى لهفة وترقب تحقيق أملهما، للتأكد من نجاح خطة حربتهما. حتى إذا دخل الجندى يحمل رأس

يحيى .. لم تتساءل هيروديا نفسها، وهي تقول، وكأنما أحصرت الآمال في قلبها:

– يالك من جندى شجاع .. لك عندى مكافأة سخية.

لكن هيرودس وقد أحس بالخطر يحدق به .. اعترته نوبة من الضيق .. فراح يخفى وجهه بعباءته، وهو يقول لهيروديا:

– اسكتى .. كم هو شيء مروّع ذلك الذى حدث!! كنت على يقين أنك تبتغين شراً!!

وأسرعت سالومى إلى الجندى، فأخذت رأس يحيى منه، وقد تملكتها الفرحة، وهي تنظر إليه، وتقول:

– لقد رفضت أن أقبّلك وأنت حي .. سأقبّلك الآن بعد أن صرت رأساً بلا جسد .. لم ترض أن أحقق أملي وأنت حي، وهأنذا أحققه قسراً عنك.. بلا إرادتك.

ثم سكتت قليلاً، وقد أصابتها لوثة حقد، وهي تنظر إلى رأس يحيى في الطبق، وتقول:

– الآن تغمض عينيك عنى!! تخفيهما احتقاراً وترفعاً، أو كراهية وبغضاً .. الآن سكت لسانك الذى كنت تهتف به بكلمات تسيء إلى وإلى أمى .. تتهمنى بالخطيئة .. أستطيع الآن أن أدلّ رأسك تحت قدمي هاتين ..

ثم راحت تدق الأرض بقدميها في عصبية ظاهرة، وتمضي فتقول:

- رفضت أن تحقق سعادتي في أن ألمس جسدك، أو أقبلك .. أكرهتني على أكرهك!!

كان الحاضرون ينظرون إلى سالومي، وقد غمرتها فرحة عارمة .. لكن الدهشة علت وجوههم حين بدت سالومي كمن أصابتها لوثة هزت كيانها، فراحت تبكي .. تتساقط دموعها .. تجهش .. تئن، ثم تصرخ:

- لكني مازلت أحبُّك .. حتى بعد موتك ..!!

ثم تمسك الطبق .. تحاول أن تحتضن رأس يحيى أو تقبِّله .. لكن يديها تتخاذلان، لم تستطع أن تمسك الطبق، فتهتف في ضيق وحسرة:

- حتى بعد موتك .. تهرب مني تمنعني وما شئت!!

ثم تصيح في نوبة هستيرية:

- ابعدوه عني، لقد عذَّبني حياً وميتاً.!!

عند ذلك تُقْبل هيروديا على الطبق، تمسك به. تنظر إلى رأس يحيى .. تتطلع إلى عينيه المغمضتين .. لكنها سرعان ما تغض طرفها، كأنها تجد في النظر إليه ما يخيفها. فما تملك إلى أن تقول:

- الآن سكت لسانك: كثيراً ما أسأت به إليّ

لكنها لهول دهشتها يخيل إليها أن صوت يحيى يقول.

- (ابتعدي عني أيتها الآثمة .)!!

فتقول، وقد غُلبت على أمرها:

– حتى بعد أن قُطع رأسك!! مازال لسانك ينطق بما يسيء إليّ!

ثم تنظر حولها فى لهفة، فإذا قطعة حديد .. تمسكها .. تهوى بها على رأس يحيى .. تحاول أن تغرسها فى لسانه، وهى تقول:

– ألا يكفّ لسانك؟!!

لكنها سرعان ماتبتعد فزعة، دون أن تحقق ما تريد .. تشعر بأن قطعة الحديد كجمرة متقدة فى يدها، فتلقى بها بعيداً، وهى ما تزال تنظر إلى رأس يحيى، وتقول:

– ألا ما أعجب أمرك .. تخيفنى حتى بعد موتك؟!!

وما تملك هيروديا إلا أن تغادر المكان .. تلحق بابنتها سالومى، وقد ملأ الرعب قلبيهما، وفاضت بهما المخاوف، ولم تعودا تستطيعان النظر إلى رأس يحيى . أنساهما الخوف فرحة تحقيق الأمل، ونزع من قلبيهما تلك السعادة التى كانا يمنيان بها نفسيهما بذبح يحيى.

كم دهش الحاضرون لما يرون ويسمعون، أليست هذه كانت رغبتهما، وما يملكون إلا أن يبدوا حزنهم مما حدث.

بينما كان ذلك يحدث فى قصر هيرودس .. بقى جسد يحيى وسط بركة فائرة من الدماء على مقربة من سجنه، حتى جاء بعض تلاميذه، فحملوه خارج أسوار القصر، ومضوا به إلى بلدته .. حيث دفنوه بجوار أمه وأبيه!!

(٢٠)

لم تستمر الحياة طويلاً بهيرودس وهيروديا وسالومى، بعد مقتل يحيى عليه السلام، ولم يُقدَّر لهم أن ينعموا بالحياة التى تمنّوها .. كان صورة يحيى تطاردهم .. تتراءى لهم أمام عيونهم فى نومهم ويقظتهم، وصوته وكلماته تدق أسماعهم .. تفسد عليهم سعادتهم .. حتى تلك اللحظات القليلة التى كانت تخلو فيها هيروديا بهيرودس .. أصابها العطب، وخالطها الكدر، وعتمت بهما الحياة، وغدا كل منهما يكره لقاء الآخر، وما عادا يريان فى يقظة النهار أو هجعة الليل إلا تلك الأفكار التى توخزهم!!

ولم يمض غير قليل .. حتى استطاع أرتياس ملك صيدا ووالد زوجة هيرودس السابقة .. أن يهاجم هيرودس، ويستولى على مملكته لعله انتقام لما فعله بابنته، أو هى مشيئة الله أن ينتقم لنبيِّه يحيى، ولم يجد هيرودس وهيروديا – وقد غُمَّ عليهما– أمامهما إلا الهرب . بعيداً . بعيداً .. إلى (ليون) بفرنسا .. حيث قُدِّر لهما أن يقضيا ما بقى لهما من أيام فى حياتهما .. يتجرّعان كؤوس الخطيئة، ويرسفان فى أغلال الخزى والعار .. حتى انتهت بهما الحياة.

أما سالومى، فقد قبض عليها رجال أرتياس، واقتادوها أسيرة إلى سيدهم، وكان قد عرف ما فعلته بالقديس يحيى، فما كاد يراها .. حتى نظر إليها نظرة لم تدر هى ما يعنيه

بها، ثم قال لأحد رجاله:

– قيدُّوها بالأغلال، وابتعدوا بها عن بقية الأسرى، ثم ليكن لى معها شأن بعد ذلك.

وحاولت سالومى أن تقول شيئاً .. لكن الكلمات تعثّرت في حلقها، واهتزّت على شفتيها .. حاولت أن تقول إنها بريئة مما فعله عمها، وما اقترفته أمها .. لكن الذى لاشك فيه أنها لم تستطع أن تبرئ نفسها من دم يحيى، فمّا تملك إلا أن تصمت .. أخرصتها نظرة من أرتياس، ليأخذها بعض رجاله، ليضعوها فى السجن.

حينما أُلقى بسالومى فى سجنها .. أحست بمرارة الوحدة، وقسوة الأسر وذُلّه، ولاشك أنها تذكرت ما فعلته بيحيى، وخليعة أمها؛ تلك التى تقطّعت بينهما السبل، وافترقا بلا وداع، وما تدرى كل منهما من أمر الأخرى شيئاً!!

لم تتحمل سالومى قسوة السجن، وذلّ الأسر، وهى ابنة الجاه وربيبة السلطان، وأظلمت الدنيا فى وجهها .. لكنها استطاعت بما بقى لها من بعض جمال، وسحر الابتسامة التى كانت تجيد رسمها على شفتيها، وبما ورثته عن أمها من دهاء وخداع .. أن تُغرى أحد حراسها بحُبِّها له. حينا تمنحه ابتسامة ذات معنى، وتارة تسوجه بدموعها .. حتى إذا مال إليها، ووثق بها .. انتهزت لحظة غفلة منه، وهربت من سجنها، ثم مضت فى طريق بعيدة .. لا تدرى إلى أين ينتهى بها السير.

كان الليل قد أرخى أستاره الحالكة .. حتى بصيص نجومه اختفت خلف سحب السماء، ومع ذلك، فقد كان على سالومي أن تمضي في طريق مجهولة .. رغم ما كانت تعانيه من جهد وآلام، وهي التي عاشت العز والراحة .. لكنها لا تملك إلا أن تفعل .. تسير وتسير. تعلو الروابي، وتهبط الأودية .. حتى إذا كلّت قدماها، وأثقلها التعب، ولم يعد بها طاقة على المسير .. جلست حيث هي، وافترشت الأرض، تطلب لنفسها بعض الراحة، وأخذها النعاس، ولم يكن نومها بأهدأ من يقظتها، فقد أثقلتها أحلام قاتمة.

.. حتى إذا انشق ضوء النهار، وصفع نور الشمس وجهها .. استيقظت، فراعها أن تجد نفسها في العراء .. حيث الأرض قد اتسعت وامتدت على مدى بصرها، وانفتح مداها .. لم تعرف سالومي في هذه اللحظة أهي راضية بحريتها بعيدة عن أرتياس وجنوده، أم ساخطة لما آل إليها أمرها في هذا المكان الموحش.!!

أحست سالومي بالظمأ، وقد جفّ حلقها .. ربما من قسوة الحزن، أو من شدة التعب، فراحت تبحث فيما حولها عن شربة ماء تطفئ بعض ظمئها .. لكنها لم تجد شيئاً .. تمنت أن تجد عوداً أخضر، تمتصّ بعض مائه .. لكن ذلك كان أمراً عسيراً عليها في هذه البادية الخالية الجرداء .. فكل شيء حولها حتى الهواء .. صامت ..

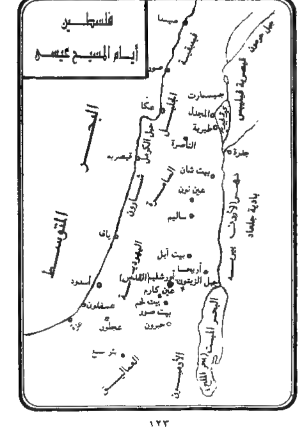
لم تتحمل سالومي قسوة الظمأ، وأعورها الموت،

وأصابتها لوثة في عقلها؛ فراحت تلعق الرمال حتى ماتت .. ربما صارت طعاماً لوحوش البادية أو لطيورها أو لعل الرمال طمرت ما بقي منه ، فلم يعد لها في الوجود أثر .. إلا قصة حياتها !!

● ● ● ●

نبتة نبتت في أرض خصبة أحسن راعيها رعايتها . حتى إذا استوى عودها، وكادت تزهر وتثمر .. جاء من انتزعها -على كره منها ومن راعيها- وغرسها هذا الآخر في مغرس فاسد، ورواها بماء أجاج، وعبثت بها الرياح من حولها .. حتى خفت أوراقها ويبس عودها، وضاق بها راعيها، فاجتثها، وألقى بها بعيداً، لتدوسها الأقدام!!

هكذا .. كانت سالومي!!


فلسطين
أيام المسيح عيسى
صيدا
فينيقية
صور
جبل حرمون
قيصرية فيلبس
جنيسارت
المجدل
طبرية
عكا
الجليل
جبل الكرمل
الناصرة
جدرة
قيصرية
البحر
بيت شان
السامرة
شارون
عين نون
ساليم
نهر الأردن
بادية جلعاد
المتوسط
يافا
اليهودية
بيت آيل
أريحا
أورشليم (القدس)
جبل الزيتون
عين كارم
أسدود
بيت لحم
بيت صور
عسقلون
غزة
عجلون
حبرون
بئر سبع
العمالقة
الأدوميين
البحر الميت (بحر الملح)

مراجع الكتاب

الكتاب	المؤلف
١- القرآن الكريم	.
٢- الأحاديث النبوية	.. .
٣- التوراة (العهد القديم)	.
٤- الأناجيل (العهد الجديد)	. ... .
٥ البداية والنهاية	ابن كثير
٦- عبقرية المسيح	عباس محمود العقاد
٧- يوحنا المعمدان	عبد الرزاق نوفل
٨- يوحنا المعمدان . تأليف ف.ب. ماير ترجمة القس مرقس داود	
٩- سالومي تأليف أوسكار وايلد .... ترجمة حلمي مراد	
١٠- العذراء مريم وميلاد المسيح بين القرآن والإنجيل	فتحي فوزي عبد المعطي

للمؤلف

(١) المزاعم الصهيونية في فلسطين : دار المعارف – سلسلة اقرأ ١٩٦٤

(٢) سجين المنصورة طبعة أولى الدار القومية للطباعة ١٩٦٤

طبعة ثانية دار سنابل ١٩٩٤

(٣) العذراء مريم وميلاد المسيح بين القرآن والإنجيل ..

دار نهضة مصر – القاهرة ١٩٩٣

(٤) مولد محمد صلى الله عليه وسلم دار سنابل ١٩٩٥

(٥) الكعبة والمسجد الحرام من عهد إبراهيم عليه السلام إلى الآن

دار سنابل ١٩٩٧

رقم الإيداع ١٣١١٤ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى 1 - 57 - 5657 - 977

مطبعة الرائد بالمنصورة ت ٣١٨٩٠٣ / ٣٢١٥٦٧

هذا الكتاب ...

* يحكى قصة حياة النبى يحيى عليه السلام [يوحنا المعمدان] .. منذ معجزة ولادته من والدين شيخين .. حتى نهاية حياته على أيدى امرأتين

* يعطى صورة صادقة للحياة السياسية والدينية التى كانت تعيشها فلسطين فى تلك الفترة ؛ باعتبارها مسرحا لأحداث القصة

* يوضح العلاقة بين يحيى والمسيح عيسى عليهما السلام ، منذ التقيا وكل منهما جنين فى بطن أمه .. حتى كان لقاؤهما عند نهر الأردن ، وما تبع ذلك من أحداث

* فى نهاية الكتاب .. يجد القارئ خريطة لفلسطين أيام المسيح ، توضح الأماكن التى وردت خلال أحداث القصة .

٣٠٠ قرشاً